

عجوز الباتينيول

الكتاب: عجوز الباتينيول
المؤلف: إميل غابوريو
رواية
ترجمها عن الفرنسية: مدين حرامي
العنوان الأصلي للكتاب والمؤلف والناشر باللغة الفرنسية لأول طبعة
Le petit vieux des Batignolles
Émile Gaboriau
(1870)

الناشر:
جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
info@jidar.net | www.jidar.net
الطبعة الأولى 2025

الترقيم الدولي:**978-1-326-19923-4**
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Le petit vieux des Batignolles
Author: Émile Gaboriau
Novel
Translate it from français to Arabic: Medyan Harami
Publisher: Jidar for Culture & Publishing
.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-19923-4

إميل غابوريو

عجوز الباتينيول

رواية

ترجمة مدين حرامي

مقدمة المترجم

في عام 1866، أهدى إميل غابوريو إلى القرّاء روايته الشهيرة «قضية لروج»، التي شهدت الظهور الأول للمفوض لوكوك، الشخصية التي ستلهم لاحقاً كونان دويل في ابتكار شيرلوك هولمز. وقبل أن يسطع نجم هذا المحقق الشهير، كان غابوريو قد رسم ملامح شخصية بوليسية بارعة في الاستنتاج، واضعًا الأسس الأولى لمدرسة أدبية ظلّت مصدر إلهام لأجيال من كتّاب الغموض والتشويق.

وفي رواية «عجوز الباتينيول»، نصحب الكاتب في جولة عبر شوارع باريس الضيقة وأزقتها الغامضة، حيث تختلط رائحة المطر بوقع الخطوات المجهولة. هناك، تتكشف أمامنا إحدى أقدم وأجمل الحكايات البوليسية التي صاغها رائد هذا الفن، الرجل الذي ترك مقاعد الدراسة ليغوص في عالم الصحافة وحكاياتها، مبتكراً أسلوباً يمزج بين دقة الملاحظة ومتعة الإثارة.

تبدأ القصة بجريمة قتل لرجل عجوز في حي الباتينيول، والدليل الوحيد اسم الجاني مكتوب بدم الضحية. الشرطة تغلق الملف بسرعة، لكن ضابط الأمن ميشينيه يشكّ في أن وضوح الأدلة ليس إلا ستاراً لإخفاء الخداع. وبمساعدة طالب الطب غودويل، ينطلق في مطاردة الحقيقة عبر متاهة من الألغاز التي لا تكشف أسرارها إلا لمن يجيد قراءة ما وراء المشهد.

عندما كنت على وشك الانتهاء من دراستي لأصبح ضابطاً صحيّاً - كانت تلك أوقاتاً طيبة، وأنا في الثالثة والعشرين من عمري - عشتُ في شارع مسيو لو برنس، بالقرب من زاوية شارع راسين.

استأجرت غرفة مفروشة بتكلفة ثلاثين فرنكاً شهرياً متضمّنة الخدمة، والتي تكلّف اليوم أكثر من مئة فرنك؛ كانت واسعة جداً لدرجة أنه يمكنني تمرير أكمام معطفي بسهولةٍ شديدة من دون فتح النافذة.

في الصباح الباكر، عندما أخرج لمتابعة جولاتي في المستشفى، أعود في وقتٍ متأخرٍ جداً لأن مقهى لروا يتمتع بجاذبية لا تقاوم بالنسبة إليّ. أما مكان سكني فأعرف جيراني المستأجرين فقط بصورةٍ سطحية؛ وجميعهم مسالمون، أو متقاعدون أو من صغار التجار.

ومع ذلك، هناك شخصٌ واحد ارتبطت معه تدريجياً بعلاقة صداقة. كان رجلاً متوسط القامة، ملامحه غير مميزة، وحليق الذقن دائماً، يُدعى السيد ميشينيه. يعامله البوّاب

باهتمامٍ خاص، ولا يتوانى عن رفع قبعته بسرعة عندما يمرُّ هذا السيد من أمام مقصورته.

كانت شقة السيد ميشينيه مفتوحة على طابقي، مقابل باب غرفتي مباشرة، وقد التقينا وجهاً لوجه في أكثر من مناسبة. وفي هذه المناسبات، كنا نلقي التحية على بعضنا بعضاً. في إحدى الأمسيات، دخل إلى غرفتي ليطلب مني بعض أعواد الثقاب. وفي إحدى الليالي، اقترضت منه بعض التبغ. أيضاً في صباح أحد الأيام، صادف أننا خرجنا في الوقت ذاته وسرنا جنباً إلى جنب لجزءٍ من الطريق ونحن نتبادل أطراف الحديث... كانت هذه علاقاتنا الأولى.

من دون أن نكون فضوليَّين أو مشبوهَين - فنحن لسنا في السن الذي كنت فيه في ذلك الوقت - فإننا نحب أن نعرف ما يمكن توقعه من الأشخاص الذين نرتبط بهم. لذلك، لم أتوصل بطبيعة الحال إلى مراقبة وجود جاري، بل الانتباه إلى أفعاله فحسب.

كان متزوجاً، ويبدو أنَّ السيدة كارولين ميشينيه، الشقراء الصغيرة، المرحة والممتلئة، تعشق زوجها. لكن سلوك هذا الزوج لم يكن منتظماً؛ ففي كثير من الأحيان يغادر قبل طلوع النهار، وغالباً ما أسمع صوت خطواته وهو عائدٌ إلى مسكنه عند شروق الشمس. وأحياناً يختفي لأسابيعَ كاملة.. حقيقةً، أنا لا أستطيع تخيّل قدرة السيدة ميشينيه الصغيرة والجميلة على تحمّل هذا الأمر.

شعرتُ بالفضول، واعتقدتُ أنَّ البوّاب، الذي عادة ما يكون ثرثاراً كطائر العقعق، سيقدم لي بعض التوضيحات. ولكن هذا خطأ! بالكاد ذكرت اسم ميشينيه، حتى تفاداني

بطريقة لطيفة، وقال لي، وهو يقلب عينيه، إنه ليس من عادته "الوشاية" بالمستأجرين. استقباله هذا ضاعف فضولي كثيراً حتى إنني، بعد أن تخلصت من أيّ خجل، شرعت في التجسُّس على جاري؛ فاكتشفت أموراً بدت هائلة بالنسبة إليّ.

رأيته ذات مرة يعود إلى مسكنه مرتدياً أحدث صيحات الموضة، وعروته مزيّنة بخمسة أو ستة نياشين. وبعد يومين، رأيته على الدرج مرتدياً معطفاً قذراً ومعتمراً قطعة من القماش المهترئ تمنحه مظهراً مرعباً.

هذا ليس كل شيء؛ فذات عصر جميل، وبينما هو خارجٌ، رأيت زوجته ترافقه إلى عتبة شقتهما، وهناك عانقته بشغفٍ قائلة: «أتوسّل إليك يا ميشينيه، كن حذراً، وفكر في زوجتك الصغيرة!».

كن حذراً...! لماذا...؟ لأيّ غرض؟ ماذا يعني ذلك...؟ إذاً، كانت الزوجة شريكة في الأمر...! وسرعان ما تضاعفت دهشتي. في إحدى الليالي، كنتُ نائماً بعمقٍ عندما فجأة سمعت طرقاً سريعاً على بابي. نهضت، وفتحت..

دخل السيد ميشينيه، أو بالأحرى اقتحم مسكني، ملابسه في حالة من الفوضى وممزقة، وربطة عنقه ومقدمة قميصه ممزقتين أيضاً، وهو حاسر الرأس، ووجهه كله ملطخ بالدماء...

صرخت مرعوباً: «ماذا يحدث؟».

لكنه أشار لي أن أصمت قائلاً: «أخفض صوتك...! قد يسمعونك... قد يكون لا شيء مع أنني أعاني جحيماً... فكرت أنك، كطالب طبّ، قد تعرف بالتأكيد كيف تعالجني...».

من دون أن أنبس ببنتِ شفة، أجلسته وسارعت إلى فحصه وتقديم الرعاية اللازمة له.

على الرغم من وجود نزيفٍ كبير، إلا فإن الجرح كان طفيفاً... في الواقع، إنه مجرد خدشٍ سطحيٍّ يبدأ من الأذن اليسرى وينتهي عند زاوية الشفتين.

بعد انتهاء التضميد، قال لي السيد ميشينيه: «هيا! مرة أخرى أنا آمن وسليم هذه المرة. شكراً جزيلاً، يا عزيزي السيد غودويل! قبل كل شيء، من فضلك لا تخبر أحداً عن هذا الحادث الصغير، و... تصبح على خير».

تصبح على خير...! كنت حقاً أفكر في النوم!

عندما أتذكّر كل الفرضيات السخيفة والتخيلات الرومانسية التي مرّت في ذهني، لا أستطيع إلا أن أضحك. اتخذ السيد ميشينيه أبعاداً رائعة في ذهني. وفي اليوم التالي، جاء بهدوءٍ ليشكرني مرة أخرى ودعاني لتناول العشاء.

إذا أُدخلت شقة جيراني بكامل حواسي، فإنه لم يكن سراً. ولكن على الرغم من تركيز انتباهي بشكلٍ كامل، إلا فإنني لم أكتشف أي شيء من شأنه أن يبدد الغموض الذي أثار فضولي الشديد.

لكن منذ ذلك العشاء، أصبحت علاقتنا أكثر ثباتاً. من المؤكد أن السيد ميشينيه أعجب بي. نادراً ما مرَّ أسبوع من دون أن يصطحبني لتناول الطعام، على حدِّ تعبيره، وفي كل

يوم تقريباً، في وقت تناول شراب الأبسنت، يأتي لينضم إليّ في مقهى لروا، ونلعب لعبة الدومينو.

هكذا في إحدى أمسيات شهر تموز، يوم جمعة، حوالي الساعة الخامسة، عندما هزمني بضربة ستة مزدوجة بلعبة الدومينو، واعترف بذلك، دخل فجأة أحد المرافقين، وكان يبدو في حالة سيئة، جاء وهمس في أذنه ببضع كلمات لم أسمعها. انتصب السيد ميشينيه، واضطرب وجهه، وقال: «أنا قادم، اذهب بسرعة وأخبرهم أنني آتٍ!».

انطلق الرجل بأقصى سرعة، ثم مدَّ جاري العجوز يده نحوي، وأضاف: «اعذرني! الواجب قبل كل شيء... سنستأنف لعبتنا غداً».

وبينما شعرتُ بالفضول الشديد، وأعربتُ عن خيبة أملٍ كبيرة، قائلاً إنني ندمتُ على عدم مرافقته، سرعان ما اقترح عليّ قائلاً: «بالمناسبة؛ لمَ لا؟ هل تريد المجيء؟ قد يكون هذا مثيراً للاهتمام...».

كإجابة على ذلك، أخذت قبعتي وخرجنا...

***

بالتأكيد، لم أكن أشك في أنني اتخذت إحدى تلك الخطوات التافهة في المظهر، والتي لها تأثيرٌ حاسمٌ على حياة المرء بأكملها. قلت لنفسي: «هذه المرة؛ لدي كلمة اللغز...!». وكنت

مملوءاً برضا سخيفٍ وطفوليٍّ، فهرولت مثل قطةٍ نحيلةٍ بجانب السيد ميشينيه. أقول: هرولت، لأنه كان عليّ أن أبذل قصارى جهدي كي لا أتخلّف عن الرجل.

كان يسير ويسير على طول شارع راسين، وهو يدفع المارة، كما لو أن ثروته تعتمد على سرعة ساقيه. ولحسن الحظ، مرّت بنا عربة أجرة في ساحة أوديون، فأوقفها السيد ميشينيه وفتح الباب، قائلاً: «اصعد يا سيد غودويل!».

أطعتُ أمره، فأخذ مكانه بجانبي بعد أن صرخ في السائق بنبرةٍ آمرة: «شارع ليكلوز، رقم 39، في باتينيول... وبسرعة!». أثار طول المسافة سلسلة من الشتائم من قِبل السائق. وعلى أي حال، ضرب بالسوط مؤخرة خيوله بقوةٍ وانطلقت العربة بعيداً. ثم سألت بابتسامة مهذبة: «آه! هل نحن ذاهبون إلى باتينيول؟». لكن السيد ميشينيه لم يجبني؛ وأشك أنه سمعني حتى.

كان هناك تحوّلٌ كاملٌ يحدث داخله. لم يبدُ متأثراً تماماً، لكن شفتيه المزمومتين وتجاعيد حاجبيه الكثيفين كشفت عن قلقٍ مؤلمٍ. بدا أن نظراته الضائعة في الفضاء تدرس مصطلحات مسألة غير قابلة للحل.

أخرج علبة السّعوط الخاصة به، وراح يسحب منها باستمرار كميات ضخمة، يعجنها بين إصبعيه؛ السبابة والإبهام، ويدلكها، ويقربها من أنفه، لكنه لا يستنشقها؛ فهذه كانت عادته التي لاحظتها والتي أسعدتني كثيراً.

كان هذا الرجل المحترم الذي يمقت التبغ، مُسلّحاً دائماً بعلبة سعوط خاصة بمصرفي صغير. إذا حدث له شيءٌ غير متوقعٍ، سواء كان لطيفاً أو مزعجاً، فإنه يسحبها من جيبه

ويتظاهر أنه يأخذ منها رشفة بغضب. غالباً ما تكون علبة السّعوط فارغة، ولكن حركته تظلّ هي نفسها. وعلمت فيما بعد أن هذا كان نظاماً خاصاً به لإخفاء انطباعاته وصرف انتباه محاوريه.

على الرغم من ذلك، استمرينا بالمضي قدماً...

صعدتْ عربة الأجرة بصعوبةٍ شديدة شارع كليشي... عبرتْ الشارع الخارجي، ودخلتْ شارع ليكلوز، ولم تستغرق وقتاً طويلاً حتى توقفتْ على بعد مسافة قليلة من العنوان المحدد. وكان من المستحيل المضي قدماً بسبب ازدحام كثيف لحشدٍ من الناس عرقل الشارع تماماً.

أمام المنزل رقم 39، كان هناك ما يقرب من مئتي أو ثلاثمئة شخص متمركزين بأعناقهم الممدودة، وأعينهم اللامعة، يلهثون بفضولٍ واضح. استطاع ستة من رقباء المدينة احتواءهم بصعوبة، فضاعفوا جهودهم عبثاً، قائلين بأعلى صوتهم: «تحركوا يا سادة...! تحركوا...!».

نزلنا من العربة واقتربنا من المكان، وسرنا بصعوبةٍ وسط جمهرة المتفرجين. كنا نقترب بالفعل من الباب رقم 39، عندما دَفعَنا أحد رقباء المدينة إلى الخلف بعنفٍ، قائلاً: «تراجعا! لايمكنكما المرور من هنا!».

استقام رفيقي، ونظر إليه قائلاً: «إذاً، ألا تعرفني؟ أنا ميشينيه، وهذا الشاب – أشار إليّ – معي!».

تلعثم الرقيب، ووضع يده على قبعته: «آسف...! أعتذر...! لم أكن أعلم... تفضّلا بالدخول».

ثم دخلنا.

في الرّدهة، وقفت هناك امرأةٌ ثرثارةٌ ضخمةٌ، واضح أنها البوّابة، وقد احمرَّ وجهها أكثر من زهرة الفاوانيا، كانت تتحدّث بتهورٍ وتومئ وسط مجموعة من مستأجري المنزل.

سألها السيد ميشينيه بشدة: «أين هو؟».

فأجابت: «في الطابق الثالث يا سيدي العزيز! في الطابق الثالث؛ الباب على اليمين. يا إلهي! يا لها من مصيبة...! في منزل مثل منزلنا! مثل هذا الرجل الطيب!».

لم أسمع المزيد. اندفع السيد ميشينيه نحو الدرج، وتبعته صعوداً بأربع درجات في كل مرة، وقلبي ينبض بشدة جعلتني أتنفّس بصعوبة.

في الطابق الثالث، كان الباب الأيمن مفتوحاً. دخلنا، وعبرنا غرفة الاستقبال، وغرفة الطعام، ثم غرفة المعيشة، وأخيراً وصلنا إلى غرفة النوم.

لو عشت ألف سنة، لن أنسى أبداً المشهد الذي ألقى بظلاله على عيني... وفي هذه اللحظة بالذات التي أكتب فيها، بعد سنوات عديدة، أراه مرةً أخرى حتى بأدقِّ التفاصيل.

في مواجهة الباب، كان هناك رجلان يتكئان على الموقد: مفوّضُ شرطةٍ متقلدٌ بوشاحه، وقاضي تحقيق. على اليمين، جلس شابٌ على الطاولة، إنه كاتب المحضر، وأخذ يكتب.

في منتصف الغرفة، على الأرضية، تستلقي جثة رجل عجوز ذي شعر أبيض وسط بركة من الدم الأسود المتخثر. كان ممدداً على ظهره وذراعاه متقاطعتان.

مذعوراً، بقيت مُسمّراً على عتبة الباب على وشك الإغماء، حتى إنني اضطررت إلى الاتّكاء على إطار الباب كي لا أسقط. لقد عرّفتني مهنتي بالموت؛ إذ تغلبت منذ فترةٍ طويلةٍ على الاشمئزاز في مدرج الجامعة، لكنها المرة الأولى التي أجد فيها نفسي وجهاً لوجه مع جريمةٍ ما؛ فمن الواضح أن جريمة بشعة قد ارتكبت هنا...

كان جاري أقل تأثّراً مني، دخل بخطواتٍ واثقة.

قال مفوض الشرطة: «أوه! ها أنت ذا يا ميشينيه، أشعر بالأسف الشديد لإزعاجك!».

سأل ميشينيه: «لماذا؟».

أجاب مفوض الشرطة: «لأننا لن نحتاج إلى خبرتك... نحن نعرف الجاني، لقد أصدرت الأوامر ويجب القبض عليه الآن».

شيءٌ غريبٌ! من لفتة السيد ميشينيه، يمكن أن يدرك المرء أن هذا التأكيد يزعجه... أخرج علبة السّعوط الخاصة به، واستنشق اثنين أو ثلاثة من صيده الرائع، ثم قال: «أوه! والجاني معروف؟!».

أجاب قاضي التحقيق: «ومعروف بشكلٍ مؤكد وواضح، نعم يا سيد ميشينيه... بعد ارتكاب الجريمة، هرب القاتل معتقداً أن ضحيته لم تعد على قيد الحياة؛ لكنه كان مخطئاً؛ فالعناية الإلهية تراقب... كان هذا العجوز المسكين ما يزال يتنفس... استجمع طاقته كلها، وغمسَ أحد أصابعه في الدم الذي ينزف من جرحه، وهناك، على الأرضية، كتب بدمه اسم قاتله، مُبلّغاً بذلك عنه للعدالة البشرية... انظر بنفسك».

وهكذا نُبِّهت، ورأيت ما لم أرَه في البداية. على الأرضية، بأحرفٍ كبيرةٍ سيئة التشكيل ومع ذلك مقروءة، مكتوب بالدم: مونيس!

سأل السيد ميشينيه: «إذاً؟».

أجاب مفوض الشرطة: «هذا هو بداية اسم ابن أخ الرجل المسكين المتوفى... ابن أخٍ كان يحبه، ويُدعى مونيسترول...».

همس جاري: «يا للشيطان!».

تابع قاضي التحقيق كلامه: «لا أفترض أن هذا البائس سيحاول الإنكار... الحروف الخمسة هي دليلٌ دامغٌ ضده. وعلاوة على ذلك، من المستفيد من هذه الجريمة الخسيسة؟ إنه وحده؛ الوريث الوحيد لهذا العجوز الذي يُقال إنه ترك ثروةً كبيرةً. وهناك المزيد: ارتُكبت الجريمة مساء الأمس... حسناً! في مساء الأمس، لم يزر هذا العجوز المسكين سوى ابن أخيه... رأته البوّابة يصل حوالي الساعة التاسعة مساءً ويغادر قبل منتصف الليل بقليل».

وافق السيد ميشينيه قائلاً: «هذا واضح، هذا واضح جداً، هذا المدعو مونيسترول ليس سوى أحمق!». وهزَّ كتفيه سائلاً: «هل سرق شيئاً حتى؟ هل كسرَ أيّ أثاث لإخفاء دافع الجريمة؟».

أجاب مفوض الشرطة: «حتى الآن لا يبدو لنا أنه هناك أيُّ تخريب... لقد قلتها؛ هذا البائس ليس قوياً... فور اكتشاف أمره، سيعترف».

عندئذ، انسحب مفوّض الشرطة والسيد ميشينيه إلى زاوية النافذة وتحدثا بصوتٍ منخفض، في حين أعطى القاضي بعض التوجيهات لكاتبه.

***

الآن، أصبحتُ أكثر استقراراً. أردت أن أعرف بالضبط ما يفعله جاري الغامض... والآن بتُّ أعرف أمره. وبهذا يمكن تفسير الطبيعة المفككة لحياته، غياباته، وعودته المتأخرة، واختفائه المفاجئ، ومخاوف زوجته الشابة وتواطؤها، والجرح الذي عالجته. ولكن ماذا يهمني اكتشافي؟!

تعافيت تدريجياً، وعادت إليَّ قدرتي على التفكير والتمحيص، تفحصّت كل شيء حولي بفضولٍ شديد. ومن مكاني، متكئاً على إطار الباب، ركزّت نظري على الشقة بأكملها. لا شيء، لا شيء على الإطلاق، يكشف عن مشهد جريمة قتل. كل شيء، على العكس من ذلك، يكشف عن الراحة وفي الوقت نفسه عن عادات مقتصرة ورتيبة. كان كل شيء في مكانه؛ لم يكن هناك تجعّد في الستائر، وخشب الأثاث يلمع، مما يدل على علامات العناية اليومية.

علاوة على ذلك، بدا واضحاً أن تخمينات قاضي التحقيق ومفوض الشرطة صحيحة، وأن العجوز المسكين قُتل في المساء السابق، في الوقت الذي يستعد فيه للذهاب إلى السرير. في الواقع، كان السرير مفتوحاً، وثمة قميص ووشاح ليلي على البطانية. وعلى

الطاولة عند رأس السرير، رأيت كوباً من الماء المُحلّى بالسُّكر، وعلبة أعواد الثقاب، وجريدة الوطن المسائية. وعلى زاوية الموقد، يضيء شمعدانٌ، شمعدان نحاسي كبير ومتين. لكن الشمعة التي أضاءت الجريمة قد احترقت، وهرب القاتل من دون أن يطفئها، فاحترقت حتى النهاية، ودخانها سوّد مرمر الموقد حيث ثُبِّتت.

لاحظتُ هذه التفاصيل فجأة، من دون جهد، إذا جاز التعبير، من غير أن يكون لإرادتي أي علاقة بالأمر. أدَّت عيني دور عدسة الكاميرا، وثبتُّت مشهد الجريمة في ذهني كما لو كانت على لوحة مُجهَّزة بدقةٍ لا ينقصها أي ظرف، وبصلابةٍ لا يمكن نسيانها. حتى اليوم يمكنني رسم شقة "عجوز الباتينيول" من دون نسيان أي شيء، من دون نسيان حتى السُدادة التي غُطِّيَ نصفها بالشمع الأخضر وكأنني مازلتُ أراها على الأرض، تحت كرسي كاتب المحضر.

كانت مَلَكَة استثنائية، مُنحْتُ هذه المَلَكَة الخاصة بي والتي لم تتح لي الفرصة بعد لاستخدامها، والتي كشفَت عن نفسها فجأةً في داخلي. لذلك، تأثرت بشدة لدرجة أنني لم أتمكّن من تحليل انطباعاتي. لم يكن لدي سوى رغبةٍ واحدةٍ، عنيدةٍ ومُتقدةٍ، ولا تقاوم؛ أن أقترب من الجثة المُمدَّدة على بعد مترين مني.

في البداية، صارعت وقاومت هاجس هذه الرغبة. لكن القَدر تدخل... اقتربت. هل لاحظ أحدٌ وجودي؟ لا أعتقد ذلك. على أي حال، لم يعرني أحدٌ أيّ اهتمام. كان السيد ميشينيه ومفوض الشرطة ما يزالان يتحدّثان بالقرب من النافذة؛ وأعاد كاتب المحضر

بصوتٍ منخفض قراءة تقريره أمام قاضي التحقيق. وهكذا، لم يقف أي شيء في طريق تحقيق خطتي.

علاوة على ذلك، يجب أن أعترف، سيطر عليّ نوعٌ من الحمى جعلتني أبدو غير حساس للظروف الخارجية وعزلتني تماماً. وهذا صحيح لدرجة أنَّني تجرأت على الركوع بالقرب من الجثة لأرى بشكلٍ أفضل وأقرب. وبعيداً عن التفكير في أنهم قد يصرخون في وجهي: «ماذا تفعل هناك؟». رحتُ أتصرف ببطء وهدوء، كرجلٍ ينفِّذ مهمة كُلِّفَ بها.

بدا لي أن ذلك العجوز المسكين يتراوح عمره بين السبعين والخامسة والسبعين عاماً. كان قصير القامة ونحيلاً جداً، لكنه بالتأكيد قويٌّ ومصممٌ على العيش لأكثر من مئة عام. كان لديه كثير من الشعر، أبيض مائل للصفرة، ومجعّد في مؤخرة رقبته. بدا أنَّ لحيته الرمادية قوية وخشنة لم تُحلق منذ خمسة أو ستة أيام؛ يبدو أنها نمَت منذ وفاته. هذه الحالة التي لاحظتها في كثيرٍ من المرات لدى جثثنا في مدرج الجامعة، ولم تفاجئني.

ما أدهشني هو ملامح المسكين: كانت هادئة، وأودُّ القول إنها كانت مبتسمة. افترقت شفتاه كما لو أنها ترحِّبان ودّيّاً بالآخرين. لذلك كان الموت سريعاً للغاية، واحتفظ بهذا التعبير الودود. كانت هذه هي الفكرة الأولى التي تبادرت إلى ذهني. نعم، لكن كيف يمكننا التوفيق بين هذين الطرفين اللذين لا يمكن توافقهما معاً: الموت المفاجئ، وهذه الأحرف الخمسة: مونيس... التي رأيتها في خطوط من الدماء على الأرضية؟ لكتابة ذلك، ما هي الجهود التي يجب أن يبذلها الرجل وهو يحتضر؟! فقط الأمل في الانتقام يمكن أن

يمنحه مثل هذه الطاقة... وأيّ غضب كان عليه، ليشعر بأنه يفارق الحياة قبل أن يتمكّن من خطّ اسم قاتله بالكامل؟ ومع ذلك، بدا أن وجه الجثة يبتسم لي.

أصيب العجوز المسكين في حلقه واخترق السلاح عنقه من جانبٍ إلى آخر. لا بد أن أداة الجريمة كانت خنجراً، أو بالأحرى إحدى تلك السكاكين الكتالونية المرعبة، التي تكون عريضة مثل اليد، وتقطع من كلي الجانبين ومدببة مثل إبرة.

لم يحدث لي في حياتي أبداً أن أتأثّر بمثلِ هذه الأحاسيس الغريبة؛ كان صدغي ينبض بعنفٍ لا يصدق، وقلبي في صدري يتضخّم إلى حدِّ الانفجار.

ماذا كنت سأكتشف بالضبط؟

مدفوعاً بقوةٍ غامضة لا تقاوم قضَت على إرادتي، أخذت بيديه، بغية فحص يدي الجثة المتصلبتين والجليديتين. كانت اليد اليمنى نظيفةً... وأحد أصابع اليد اليسرى؛ السبابة، ملطخة بالدم بالكامل. ماذا! كتب العجوز باليد اليسرى...! هيا...!

أصابني نوعٌ من الدوار، عيناي جاحظتان، وشعري منتصب إلى نهايته، وبالتأكيد أكثر شحوباً من الميت الذي يرقد عند قدمي. وقفتُ، وأطلقتُ صرخةً مرعبةً: «يا إلهي...!».

عند سماع هذه الصرخة، قفز الجميع، متفاجئين ومذعورين، سألوني معاً: «ماذا يحدث؟ ماذا يحدث؟».

حاولت الردّ، لكن الانفعال كان يخنقني، شعرت وكأن فمي مليء بالرمال. لم أتمكّن سوى أن أشير إلى يدي الميت وأنا أتلعثم: «هناك...! هناك...!».

بسرعة البرق، ألقى السيد ميشينيه بنفسه على ركبتيه بالقرب من الجثة. رأى ما رأيته، وكان انطباعي عن السيد ميشينيه، لأنه نهض بسرعةٍ معلناً أنه هذا الرجل العجوز المسكين ليس هو من كتب الأحرف الموجودة هناك.

وبينما كان القاضي ومفوّض الشرطة ينظران إليه بفاهين مفتوحين، شرح لهما هذا الظرف بأنَّ اليد اليسرى فقط كانت ملطخة بالدم.

كررَ مفوّض الشرطة أسفه قائلاً: «وأنا لم أنتبه لذلك!».

كان السيد ميشينيه حانقاً بشدة، فقال: «هكذا؛ الأشياء التي تلفت النظر هي التي لا نراها... لكن هذا لا يهم! وهنا تغيّر الوضع بشكلٍ كبير الآن... فإذا لم يكن العجوز هو من كتب، فإنه الذي قتله...».

وافق مفوض الشرطة قائلاً: «بالتأكيد!».

اختتم جاري كلامه: «والآن، هل يمكننا أن نتخيّل قاتلاً غبياً لدرجة أنه يدين نفسه بكتابة اسمه بجوار جثة ضحيته؟ لا، أليس كذلك؟».

أصبح القاضي قلقاً؛ فقال: «من الواضح أن المظاهر خدعتنا... مونيسترول ليس الجاني... من يكون إذاً؟ الأمر متروك لكَ يا سيد ميشينيه لتكتشفه». ثم توقف. دخل أحد عناصر الشرطة، ووجّه كلامه إلى مفوض الشرطة قائلاً: «نُفِّذتُ أوامرك يا سيدي؛ أُلقي القبض على مونيسترول ووُضع في السجن، واعترف بكل شيء».

***

كانت الصدمة أشدَّ قسوة لأنها غير متوقعة، فمن المستحيل وصف دهشة الجميع. ماذا؟! وبينما كنّا هناك نسعى جاهدين للبحث عن دليل على براءة مونيسترول، اعترف هو بذنبه!

كان السيد ميشينيه هو أول من استعاد توازنه. وبسرعة، رفع أصابع علبة السعوط الخاصة به إلى أنفه خمس أو ست مرات، وتقدّم نحو الشرطي قائلاً: «إما أنكَ مخطئ أو أنكَ تضللنا، ما من حلٍّ وسط».

عقّب الشرطي: «أقسم لكَ يا سيد ميشينيه...».

ردَّ ميشينيه: «اصمت! إما أنكَ أسأت فهم ما قاله مونيسترول، أو كنت متحمساً على أمل مفاجأتنا بإعلان أن الأمر قد حُسم...».

ظلَّ الشرطي متواضعاً ومحترماً حتى ذلك الحين، رفض الاتهام وردَّ مقاطعاً السيد ميشينيه: «اعذرني، أنا لست أبلهَ ولا كاذباً، وأعلم ما أقول...».

تحوّل النقاش إلى جدالٍ متشنجٍ لدرجة أن قاضي التحقيق رأى ضرورة التدخل فقال: «اهدأ يا سيد ميشينيه، وقبل أن تصدر أحكاماً، انتظر حتى تتضح الأمور لكَ». ثم التفتَ إلى الشرطي، وتابع قائلاً: «وأنت يا صديقي، أخبرنا بما تعرفه، وأسباب ثقتك بنفسك».

وهكذا، بدعمٍ من قاضي التحقيق، سحق الشرطي السيد ميشينيه بنظرةٍ ساخرةٍ، وقال بتعالٍ واضحٍ للغاية: «حسناً، لنبدأ، هذا هو الأمر: كلّفَ السيد القاضي والسيد المفوّض

الحاضران هنا، كلاًّ من المفتش غولار، وزميلي بولتان وأنا، بإلقاء القبض على المدعو مونيسترول، وهو صائغ حُليّ مزيف، ومقيم في شارع فيفيان، 75، والمتهم بقتلِ عمّه».

وافق مفوض الشرطة بصوتٍ منخفض: «هذا صحيح!».

واصل الشرطي كلامه: «بناءً على ذلك، أخذنا عربة أجرة وتوجّهنا إلى العنوان المحدد. وصلنا ووجدنا السيد مونيسترول في الغرفة الخلفية من متجره، على وشك تناول العشاء مع زوجته والتي يتراوح عمرها بين الخامسة والعشرين إلى الثلاثين عاماً، وهي امرأة جميلة للغاية. عند رؤيتنا نحن الثلاثة على التوالي، وقف السيد مونيسترول مستفسراً ما الذي نريده منه. فأخرج المفتش غولار مذكرة الاعتقال من جيبه وأجاب: "باسم القانون، أعتقلك...!"».

بدا أن السيد ميشينيه في حالة قلق، وطلب من الشرطي الاستعجال، ولكن الأخير، كما لو أنه لم يسمع، استمر بالنبرة الهادئة نفسها: «اعتقلت أشخاص عدة في حياتي؛ حسناً! لم أرَ أحداً ينهار مثل هذا الشخص. إذ قال لنا لا بد أننا نمزح أو أننا مخطئون. فأجبناه بالنفي. فاستفسر مندهشاً: "ولكن على أية حال، لماذا تعتقلونني؟".

هزَّ غولار كتفيه قائلاً: "لا تدعي براءة الأطفال، وماذا عن عمّك؟ عُثِرَ على جثته ولدينا أدلةٌ دامغةٌ ضدك..".

آه! الوغد، يا له من أحمق! ترنح وسقط أخيراً في الكرسي، وهو يبكي ويتلعثم في إجاباتٍ مبهمةٍ. عندما رأى غولار ذلك، هزّه من ياقة معطفه قائلاً له: "صدقني، أسرع طريقة هي الاعتراف بكل شيء". نظر إلينا في حالة ذهول وتمتم: "حسناً! نعم، أعترف بكل شيء!"».

وافق مفوض الشرطة قائلاً: «أحسنت التعامل يا غولار!».

انتصر الشرطي، وتابع كلامه: «وجبَ ألا نبقى مطوّلاً في المتجر. نصحونا بتجنّب أي فضيحة، وكان المتفرجون الفضوليون يتجمعون بالفعل... لذلك، قبض غولار على المشتبه به من ذراعه، وصاح في وجهه: "هيا، لننطلق! إنهم ينتظروننا في مقر الشرطة!"، ثم وقف مونيسترول بصعوبة على ساقيه المرتعشتين، وقال بلهجة رجل يستجمع شجاعته: "لننطلق...!". كنا نعتقد أن الجزء الأصعب قد مرَّ؛ ولكننا أغفلنا أمر المرأة. حتى تلك اللحظة، ظلّت وكأنها مغشيٌّ عليها على كرسيٍّ بذراعين، من دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة، من دون أن تبدو أنها تفهم ما يحدث حتى. ولكن عندما رأت أننا بالتأكيد سنأخذ زوجها، قفزت كاللبؤة وألقت بنفسها عبر الباب وهي تصرخ: "لن تمروا!". بكل صراحة، لقد كانت رائعة! لكن غولار شاهد أموراً أكثر هولاً من ذلك، فقال: "هيا، هيا أيتها السيدة الشابة، لا نريد أن نغضبك؛ سنعيد لكِ زوجك". ومع ذلك، بدلاً من أن تفسح لنا المجال، تشبثت بقوةٍ أكبر بإطار الباب، وأقسمت أن زوجها بريء؛ معلنة أننا إذا أدخلناه إلى السجن، فإنها ستتبعه، تارة تهددنا وتغمرنا بالشتائم، وتارة تتوسل إلينا بألطف الأصوات... ثم، عندما أدركَت أن لا شيء سيمنعنا من أداء واجبنا، تركَت الباب، وألقت بنفسها على عنق زوجها قائلة: "يا حبيبي العزيز، هل يعقل أن تُتهم بجريمة؟ أنت...!

أنت...! أخبر هؤلاء الرجال أنك بريء...!". صحيح أننا تأثرنا جميعاً، لكنه كان أقل حساسية منا، ولديه من القسوة في دفع زوجته المسكينة بوحشيةٍ شديدة لتسقط مثل كتلة في زاوية الغرفة الخلفية للمتجر. ولحسن الحظ، كانت تلك هي النهاية. وبينما كانت الزوجة فاقدة للوعي، اغتنمنا الفرصة لتعبئة الزوج في العربة التي أقلتنا. نعم، التعبئة هي الكلمة المناسبة؛ لأنه أصبح كالجسم الخامل، لم يعد يستطيع الوقوف، ووجبَ علينا حمله. ولكي لا أنسى شيئاً، يجب أن أذكر أن كلبه؛ وهو نوعٌ من الكلاب السوداء الصغيرة، أراد بشدة أن يقفز معنا إلى العربة، ووجبَ علينا بذل جهدٍ كبيرٍ للتخلّص منه. في الطريق، بالطبع حاول غولار تشتيت انتباه السجين وجعله يتكلم... لكن كان من المستحيل إخراج كلمة من حلقه. فقط عندما وصل إلى مقرِّ الشرطة بدا أنه استعاد وعيه. وعندما وُضع في النهاية في زنزانة "السريين"، ألقى بنفسه على سريره وهو يردّد: "ماذا فعلت لكَ يا إلهي؟! ماذا فعلت لكَ...؟!". في هذه اللحظة اقترب منه غولار، وسأله للمرة الثانية: "إذاً، أنت تعترف بنفسك مذنباً!". أومأ مونيسترول برأسه مجيباً: "نعم، نعم!"، ثم قال بصوتٍ أجش: "من فضلك، اتركني وحدي!". وهذا ما فعلناه، ولكن بعد أن حرصنا على وضع حارس يراقب نافذة الزنزانة، في حال حاول الرجل الانتحار... بقي غولار وبولتان هناك، وأنا هنا!».

غمغمَ مفوّض الشرطة قائلاً: «هذا دقيق! لا يمكن أن يكون أدقّ من ذلك...».

وكان هذا رأي القاضي أيضاً، إذ همس: «كيف يمكننا أن نشكَّ بعد هذا، بشأن إدانة مونيسترول؟».

بقيتُ في حيرة من أمري، ومع ذلك ظلّت قناعاتي راسخة. وحتى إنني كدتُ أفتح فمي لأغامر بالاعتراض، لكن السيد ميشينيه حذرني صارخاً: «كل هذا جيد وجميل فعلاً! إلا أنه إذا افترضنا أن مونيسترول هو القاتل، فإننا مجبرون أيضاً على الاعتراف بأنه هو الذي كتب اسمه هناك، على الأرض... واللعنة! إنه أمرٌ محيّرٌ...».

قاطعه مفوّض الشرطة قائلاً: «بالفعل! بعدما اعترف المتهم، من المفترض أنه لا داعي للتفكير في تفصيل سيوضحه التحقيق...».

لكن ملاحظة جاري أيقظت حيرة القاضي كلها. من دون أن يعبّر عن رأيه، أعلن: «سأذهب إلى مقرِّ الشرطة، أرغب في استجواب مونيسترول هذا المساء بالذات».

بعد أن أوصى مفوض الشرطة بإتمام كافة الإجراءات الشكلية بعناية وانتظار وصول الأطباء المعيّنين لتشريح الجثة، غادر القاضي، يتبعه كاتبه والشرطي الذي جاء ليخبرنا بنجاح الاعتقال.

زمجر مفوّض الشرطة الذي صار يفكر في عشائه: «نأمل ألا يتأخر هؤلاء الأطباء اللعينون كثيراً!».

لم يرّد عليه السيد ميشينيه ولا حتى أنا. وقفنا في مواجهة بعضنا بعضاً، ومن الواضح أننا مهووسان بالفكرة ذاتها. إذ همس جاري: «بعد كل شيء، ربما كان العجوز هو الذي كتب...».

عقّبتُ مستنتجاً: «باليد اليسرى إذاً!؟ هل هذا ممكن...؟! ناهيك عن أن موت الرجل المسكين لا بد أن يكون فورياً...».

سألني ميشينيه: «هل أنت متأكد؟».

أجبت: «من جرّاء جرحه، سأقسم بهذا... علاوة على ذلك، سيأتي الأطباء الذين سيخبرونك إن كنتُ على حقٍّ أم لا...».

كان السيد ميشينيه يداعب أنفه بشكلٍ مجنون، فقال: «في الواقع، هناك بعض الغموض وراء هذا الأمر... يجب مراقبة ذلك. إنه تحقيق يجب إجراؤه مرة أخرى... حسناً، دعنا نعيد تنفيذه، ولنبدأ باستجواب البوّابة». هرول إلى الدرج، وانحنى على السلم، صارخاً: «أيتها البوّابة! أنتِ هناك! أيتها البوّابة! تفضلي بالصعود قليلاً، من فضلك».

***

في أثناء انتظار وصول البوّابة، أجرى السيد ميشينيه فحصاً سريعاً ودقيقاً لمسرح الجريمة.

لفَتَ انتباهه قفلُ باب مدخل الشقة بشكلٍ خاص؛ لقد كان سليماً ويعمل من دون صعوبة. استبعد هذا التفصيل تماماً فكرة اقتحام مجرم غريب ليلاً باستخدام مفاتيح مزيفة.

من جهتي، بشكلٍ آلي أو بالأحرى بفضل الغريزة المذهلة التي تجلّت في داخلي، التقطتُ السُدادة المغطاة جزئياً بالشمع الأخضر التي لاحظت وجودها على الأرض. لقد

استُخدمت، على الجهة الشمعية، إذ كانت بها آثار مفتاح؛ ولكن، على الجهة الأخرى، يمكن رؤية شقٍ عميق والذي من الواضح أداة حادة ومدببة قد أحدثته.

شككتُ في أهمية اكتشافي، فأبلغت السيد ميشينيه بذلك، ولم يتمكّن من أن يخفي تعبير سعادته. فصاح قائلاً: «أخيراً... حصلنا أخيراً على دليلٍ! هذه السُدادة، القاتل هو مَن أسقطها هنا... لقد غرس فيها الطرف الهشّ للسلاح الذي كان يستخدمه. الخلاصة: أداة القتل هي خنجر ذو مقبض ثابت، وليست واحدة من تلك السكاكين القابلة للطي... بفضلِ هذه السُدادة، أنا واثق من الوصول إلى الجاني كائناً من كان...!».

كان مفوّض الشرطة ينهي عمله في غرفة النوم، بينما بقينا أنا والسيد ميشينيه في غرفة المعيشة عندما قاطعنا صوت تنفس ثقيل.

على الفور تقريباً، ظهرت الثرثارة القوية التي رأيتها في الردهة وهي تتحدث بصوتٍ عالٍ وسط المستأجرين. كانت البوّابة أكثر احمراراً مما بدت عليه منذ وصولنا. وسألَت السيد ميشينيه: «بماذا يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟».

أجاب: «اجلسي يا سيدتي!».

ردَّت البوّابة: «ولكن يا سيدي، لدي أشخاص في الأسفل...».

قاطعها السيد ميشينيه آمراً: «سينتظرونك... أقول لكِ أن تجلسي».

أطاعت الأمر بعد أن فوجئت بنبرة السيد ميشينيه. ثم، نظر إليها الأخير بعينيه الرماديتين الرهيبتين، وبدأ يقول: «أحتاج إلى بعض المعلومات، وسأستجوبك. ومن مصلحتك الردّ مباشرةً. قبل كل شيء، ما اسم هذا الرجل المسكين الذي قُتل؟».

- اسمه بيغورو، يا سيدي الطيّب! لكنه معروفٌ بشكلٍ أساسي باسم أنتينور الذي اتخذه في الماضي باعتباره أكثر انسجاماً مع عمله.

- هل كان يسكن في الشقة منذ فترة طويلة؟

- منذ ثمانية أعوام.

- أين كان يعيش قبل ذلك؟

- في شارع ريشيليو، حيث لديه متجره... لأنه كان حلّاقاً، ومن هذه المهنة حصل على ثروته.

- إذاً، كان يُعتبر غنياً؟

- سمعتُ ابنة أخيه تقول إنه لن يسمح بقطع رقبته مقابل مليون.

وفي هذا الصدد، بات لا بد من اتخاذ إجراءات وقائية، حيث جُرِدَت أوراق العجوز المسكين.

تابع السيد ميشينيه قائلاً: «الآن، أيّ نوع من الرجال كان هذا السيد بيغورو، المعروف بأنتيور؟».

أجابت البوّابة: «أوه! كان صفوة الرجال يا سيدي الطيّب... كان مزعجاً، ومهووساً، وبخيلاً بشكلٍ لا يصدق، ولكنه لم يكن متكبراً... وكان مضحكاً جداً؛ إذ يمكنك أن تقضي لياليك تستمع إليه وهو يروي قصصاً... فعلاً، كان يعرف كثيراً من القصص! فكّر فقط في أنه عملَ حلّاقاً سابقاً حيث، كما يقول، جعّدَ شعر أجمل نساء باريس...».

- كيف كان يعيش؟

- مثل أيّ شخص آخر... مثل الذين لديهم دخل ثابت بالطبع، ولكنهم يحتفظون بأموالهم.

- هل يمكنك أن تعطيني بعض التفاصيل؟

- أوه! بالتأكيد، أعتقد ذلك، إذ كانت مسؤوليتي رعاية شقته... وهذا لم يسبب لي كثيراً من المشقّة؛ لأنه كان يفعل كل شيء تقريباً؛ الكنس، وإزالة الغبار، والفرك بنفسه... كان هوسه، فعلاً! لذا، في كل يوم يمنحنا إياه الرب، عند الظهر، كنت أحضر له كوباً من الشوكولاته، يشربه ثم يبتلع كوباً كبيراً من الماء، وهذا هو غداؤه. بعدها يرتدي ملابسه، ويستغرق ذلك حتى الساعة الثانية، لأنه كان مهتماً وحريصاً على شخصه أكثر من العروس. وبمجرد أن يصبح مستعداً، يخرج للتجوّل في باريس. في الساعة السادسة، يذهب لتناول العشاء في مطعم برجوازي؛ لي ديموازيل غوميه، في شارع لابيه. وبعد العشاء، يركض ليأخذ نصف كوبه من الشراب ويلعب الورق في مقهى غيربوا... وفي الساعة الحادية عشرة يعود للنوم. حسناً، كان لديه عيبٌ واحدٌ فقط، المسكين... كان مهووساً بالجنس. حتى في كثير من الأحيان، كنت أقول له: "في مثل سنك، ألا تخجل...؟!" ولكننا لسنا مثاليين، ويمكننا أن نفهم ذلك من صانع العطور السابق، الذي كان لديه كثير من العلاقات العاطفية في حياته...

ارتسمت ابتسامة منافقة على شفتي البوّابة القوية، لكن لم يكن هناك شيء قادر على إسعاد السيد ميشينيه الذي استمر في طرح أسئلته:

- هل كان السيد بيغورو يستقبل كثيراً من الناس؟

- قليلاً جداً... بالكاد رأيت أحداً يأتي إلى منزله غير ابن أخيه؛ السيد مونيسترول، الذي اعتاد أن يدعوه لتناول العشاء في مطعم الأب لاتويل كل يوم أحد.

- وكيف كانت علاقتهما، العمّ وابن الأخ؟

- مثل إصبعي اليد.

- هل كانت لديهما خلافات؟

- أبداً...! باستثناء أنهما كانا يتشاجران دائماً بسبب السيدة كلارا.

- من هي السيدة كلارا هذه؟

- إنها زوجة السيد مونيسترول، بالتالي، إنها إنسانة رائعة... لكنْ لم يكن الراحل السيد أنتينور يحتملها. كان يقول إن ابن أخيه يحب هذه المرأة كثيراً، وهي تقوده من أنفه، وتجعله يمرّ بتجاربَ صعبة... ويدّعي أنها لا تحبُّ زوجها، ولديها أسلوب يتجاوز مكانتها وأنها ستفعل أشياء غبيةً في نهاية المطاف... حتى إن السيدة كلارا وعمّه تشاجرا في نهاية العام الماضي. أرادت من الرجل أن يُقرض السيد مونيسترول مبلغاً قدره مئة ألف فرنك لشراء متجرٍ للمجوهرات في باليه رويال. لكنه رفض معلناً أنهما سيتمتعان بثروته بعد وفاته كما يشاءان؛ ولكن بما أنه كسبها، ادعى أنه يعتزم الاحتفاظ والاستمتاع بها حتى ذلك الحين...

اعتقدتُ أن السيد ميشينيه سيصرُّ على هذا التفصيل الذي بدا لي خطيراً للغاية... لكنه لم يهتم. عبثاً، ضاعفتُ الإشارات، واستمر في طرح أسئلته: «يبقى أن نعرف من اكتشف الجريمة؟».

تحسَّرت البوّابة قائلة: «أنا يا سيدي الطيّب، أنا! آه! إنه أمرٌ مروّعٌ! تخيلوا أنه هذا النهار، عند منتصف الظهيرة، كالعادة، أحضرت للسيد أنتينور الشوكولاته، في وقت التنظيف، لدي مفتاح الشقة... ففتحت، ودخلت، وماذا رأيت... آه! يا إلهي...!». ثم بدأت تصرخ عالياً.

قال السيد ميشينيه بجدية: «هذا الألم يثبت صدق قلبك يا سيدتي... فقط، بما أنني في عجلة من أمري، حاولي السيطرة عليه... ماذا كنتِ تفكرين عندما رأيتِ مستأجرك مقتولاً؟».

ردَّت البوّابة: «قلت لمن أراد أن يسمع: إن ابن أخيه؛ قاطع الطريق، هو الذي فعل ذلك ليرثه».

سأل ميشينيه: «ومن أين جاءك هذا اليقين؟ ففي النهاية، اتهام رجل بمثل هذه الجريمة الكبرى هو بمنزلة دفعه إلى الإعدام».

أجابت البوّابة: «يا سيدي، من سيكون غيره؟ جاء السيد مونيسترول لزيارة عمّه الليلة الماضية، وعندما خرج كان الوقت يقترب من منتصف الليل... حتى، هو الذي يتحدّث معي دائماً، لم يقل لي أي شيء عند وصوله أو عند مغادرته... ومنذ تلك اللحظة حتى لحظة اكتشافي للجريمة، أنا متأكدة من أنه لم يصعد أحد إلى السيد أنتينور...».

أعترف أن هذه الشهادة أربكتني.

ما زلتُ ساذجاً، ولم يخطر في بالي أن أستمر في هذا الاستجواب. ولحسن الحظ، يتمتع السيد ميشينيه بتجربةٍ رائعة، ويتقن تماماً هذا الفن الصعب المتمثل في استخلاص الحقيقة كاملة من الشهود. إذ أصرَّ على متابعة استجوابه قائلاً: «إذاً يا سيدتي! هل أنت متأكدة من أن مونيسترول جاء مساء الأمس؟».

أجابت البوّابة: «بالتأكيد!».

سأل السيد ميشينيه: «هل رأيته بوضوح، وتعرّفتِ عليه بوضوح؟».

ردَّت البوّابة: «أوه! اسمح لي... لم أحدّق به جيداً. لقد مرَّ بسرعةٍ كبيرة، وهو يحاول الاختباء مثل قاطع الطريق، والممر ضعيف الإضاءة...».

قفزتُ من مكاني عند هذه الإجابة ذات الأهمية التي لا تقدر بثمن، وتقدمت نحو البوّابة، وصرخت: «إذا كان الأمر كذلك، كيف تجرئين على التأكيد أنك تعرفتِ على السيد مونيسترول؟».

نظرت إليّ بابتسامةٍ ساخرة، وأجابت: «إذا لم أرَ وجه السيد، فقد رأيت خطم الكلب... وبما أنني أداعبه دائماً، فقد جاء إلى مقصورتي، وكنت سأعطيه عظمة من لحم الفخد حين صفّر له صاحبه».

نظرت بقلقٍ إلى السيد ميشينيه، أترقب ردّ فعله حيال هذه الإجابات، لكن وجهه لم يكشف أي انطباعات.

وسأل فقط: «ما هو نوع كلب السيد مونيسترول؟».

ردّت البوّابة: «إنه من نوع لولو الصغير، مثل تلك التي كان يمتلكها السائقون في الماضي، سوداء تماماً مع بقعة بيضاء فوق الأذن؛ نسميه بلوتون».

نهض السيد ميشينيه من مقعده، وقال للبوّابة: «يمكنك المغادرة، فقد وضح الأمر بالنسبة إليّ». وعندما خرجت، قال: «يبدو من المستحيل بالنسبة إليّ ألا يكون ابن أخيه هو الجاني».

خلال هذا الاستجواب الطويل وصل الأطباء، وعندما أتمّوا تشريح الجثة، كان استنتاجهم هو: «من المؤكد أنَّ وفاة السيد بيغورو قد حدثت على الفور، لذا فإنه ليس هو من كتب هذه الحروف الخمسة: "مونيس" التي رأيناها على الأرضية، بالقرب من الجثة. وبذلك، لم أكن مخطئاً».

صاح السيد ميشينيه: «ولكن إذا لم يكن هو، فمن يكون؟ مونيسترول... هذا ما لم يدخل ذهني أبداً».

وبينما كان مفوّض الشرطة سعيداً لأنه سيتمكّن أخيراً من الذهاب لتناول العشاء، سخر منه بسبب حيرته؛ حيرة سخيفة، حيث إنَّ مونيسترول قد اعترف، فقال: «ربما أكون فعلاً أحمق، هذا ما سيقرره المستقبل... وفي انتظار ذلك، تعال يا عزيزي السيد غودويل! تعال معي إلى مقرِّ الشرطة!».

***

تماماً كما وصلنا إلى باتينيول، استقلينا عربة أجرة للذهاب إلى مقرِّ الشرطة.

كان قلق السيد ميشينيه كبيراً؛ لم تتوقّف أصابعه من التنقّل من علبة السّعوط الفارغة إلى أنفه، وسمعته يتذمّر بين أسنانه: «يجب أن أتأكد من الأمر! يجب أن أكون متأكداً بشأنِ هذا الموضوع». ثم أخرج من جيبه السُدادة التي سلمته إياها، وقلّبها مراراً وتكراراً بمظهر القرد الذي يقشر الجوز، وتمتم: «إنها قطعة الدليل، ومع ذلك... لا بد من الاستفادة من هذا الشمع الأخضر...».

أما أنا، فظللتُ مدفوناً في زاويتي، ولم أنطق بكلمة.

بالتأكيد كان وضعي غريباً للغاية، لكنني لم أفكر فيه. إذ استنفذت في هذه القضية كل ما لدي من ذكاء. فكرت في العناصر المختلفة والمتناقضة، وأرهقتُ نفسي في فهمِ سرّ الدراما التي توقعتها.

عندما توقفت عربتنا، كان الظلام دامساً.

كان رصيف أورفيفر مهجوراً وهادئاً؛ لا صوت ولا مارة. والمتاجر القليلة في المنطقة مغلقة. انسحبت حياة الحي كلها إلى المطعم الصغير الذي يقع تقريباً على زاوية شارع القدس، حيث أخذت ظلال الزبائن ترتسم على الستائر الحمراء لواجهة المطعم.

سألتُ السيد ميشينيه: «هل سيُسمح لكَ بالوصول إلى المتهم؟».

أجابني: «بالتأكيد! ألستُ مكلَّفاً بمتابعة القضية؟ ألا يجوز، بناءً على مقتضيات التحقيق غير المتوقعة، أن أتمكّن في أيّ وقت من النهار أو الليل من استجواب

المعتقل؟». ثم بخطاً سريعة دخل تحت القنطرة قائلاً لي: «تعال، تعال، ليس لدينا وقت لنضيعه».

لم تكن هناك حاجة لتشجيعه لي. تبعته مشوَّشاً بمشاعر لا يمكن تحديدها، ومرتعشاً بفضولٍ غامض.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أعبرُ فيها عتبة مقرِّ الشرطة، والله أعلم ما كانت توقعاتي وقتها. رحت أقول لنفسي: «هنا، ليس من دون رهبة معينة، هنا يكمن سرّ باريس...». كنت غارقاً جداً في أفكاري لدرجة أنني نسيت أن أنظر إلى قدمي، فكدتُ أن أسقط... وهكذا أعادتني الصدمة إلى الشعور بالموقف.

مشينا على طولِ ممر واسع ذي جدران رطبة وأرضية خشنة. وسرعان ما دخل رفيقي إلى غرفة صغيرة حيث يلعب رجلان الورق بينما يدخن ثلاثة أو أربعة آخرون الغليون، وهم مستلقون على سرير المعسكر. وتبادل معهم بضعِ كلمات لم تصل إليَّ لأنني بقيتُ خارج الغرفة، ثم خرج وانطلقنا مرةً أخرى.

بعد عبورنا الفناء ودخولنا إلى ممرٍ ثانٍ، لم يستغرق الأمر كثيراً حتى وصلنا أمام بوابةٍ حديديةٍ تحمل مسامير ثقيلة وقفلاً هائلاً.

بناءً على إشارة من السيد ميشينيه، فتحَ لنا أحد الحراس هذه البوابة؛ تركنا على يميننا قاعة واسعة حيث بدا لي أنني رأيت رقباء المدينة وحراس باريس، وأخيراً، صعدنا درجاً شديد الانحدار.

في أعلى هذا الدرج، عند مدخل ممرٍ ضيق يتخلله عدد من الأبواب الصغيرة، يجلس رجل بدين ذو وجه بهيج، بالتأكيد لم يكن لديه مظهر السجّان التقليدي. بمجرد أن رأى رفيقي حتى صرخ:

- ياه! إنه السيد ميشينيه! بصراحة؛ كنت أنتظرك... لنراهن أنكَ قادمٌ بشأن قاتل عجوز الباتينيول.

- بالضبط. هل من جديد؟

- لا!

- ومع ذلك، لا بد أن يكون قاضي التحقيق قد حضر.

- لقد غادر لتوه.

- حسناً؟

- لم يبقَ مع المتهم ثلاث دقائق، وعندما تركه، بدا راضياً للغاية. وفي أسفل الدرج التقى بالمدير، فقال له: «إنها قضية محسومة؛ فالقاتل لم يحاول حتى الإنكار».

قفز السيد ميشينيه ثلاث أقدام، لكن الحارس لم يلاحظ ذلك، لأنه واصل كلامه: «وعلاوة على ذلك، لم يفاجئني الأمر... فبمجرد رؤيته، عندما أحضروه إليّ، قلت: "هذا الشخص لا يعرف كيف يتحكّم في نفسه"».

سأل السيد ميشينيه: «وماذا يفعل الآن؟».

أجاب الحارس: «إنه ينتحب... نُصحت بمراقبته خشية أن يُقْدِمَ على الانتحار، وكما ينبغي، أنا أراقبه... ولكن لا فائدة من ذلك؛ إنه واحد آخر من أولئك الذين يهتمون ببشرتهم أكثر من بشرة الآخرين...».

قاطعه السيد ميشينيه: «هيا لنراه، وقبل كل شيء، لا تصدر أيّ ضجيج...».

ثم انطلقنا جميعاً على أطراف أقدامنا، حتى وصلنا إلى بابٍ من خشب البلوط الصلب، مثقوب على مستوى العين بنافذةٍ صغيرة ذات شبكة. ومن خلالها، كان بإمكاننا رؤية كل ما يحدث في الزنزانة، المضاءة بمصباح غاز ضعيف.

ألقى الحارس نظرةً سريعةً أولاً، ثم نظر السيد ميشينيه، ثم جاء دوري...

على سريرٍ حديدي ضيق مُغطى ببطانية صوف رمادية ذات خطوط صفراء، رأيت رجلاً مستلقياً على وجهه، ورأسه مختبئ بين ذراعيه المطويتين جزئياً. كان يبكي، صوت بكائه الثقيل وصل إليَّ، وبين الحين والآخر، تهزّه رعشة متلاحقة من رأسه إلى أخمص قدميه.

أمر السيد ميشينيه الحارس: «افتح الباب لنا في الحال». فأطاع الأخير ودخلنا.

عند صرير المفتاح، نهض السجين وجلس على لوحه، وساقاه وذراعاه متدليتان، ورأسه مائل إلى صدره، ناظراً إلينا في حالة ذهول.

كان رجلاً يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والثامنة والثلاثين، وطوله أعلى بقليل من المتوسط، لكنه قوي البنية، وتنبت رقبة ضخمة بين كتفيه العريضين. كان قبيحاً؛ فقد شوّهه الجُدري، وأعطى أنفه الطويل المستقيم وجبينه المتراجع شيئاً من ملامح الخروف الغبية. ومع ذلك، بدت عيناه الزرقاوان جميلتين للغاية، وأسنانه بيضاء بشكلٍ لافت...

بدأ السيد ميشينيه حديثه بالقول: «حسناً سيد مونيسترول، إننا آسفون بالفعل!».

وبما أن الرجل البائس لم يرد، تابع قائلاً: «أتفهم أن الوضع ليس مبهجاً.. ومع ذلك، لو كنت مكانك، لوددتُ أن أثبت أنني رجل. سأتخذ قراري، وسأحاول إثبات براءتي».

ردَّ مونستيرول: «أنا لست بريئاً!».

هذه المرة، لم يكن هناك مجالٌ للتأويل أو الشك في ذكاء أحد عناصر الشرطة، لقد تلقينا الاعتراف الرهيب من فمِ المتهم نفسه.

صاح السيد ميشينيه: «ماذا؟! أنت الذي...».

وقف الرجل على ساقيه المترنحتين، بعينيه المتقدتين، وفمه الذي يزبد في نوبة غضب حقيقية، وقاطعه: «نعم، أنا هو، أنا وحدي. كم مرة يجب أن أكرر ذلك؟ جاء قاضٍ للتو، واعترفت بكل شيء ووقّعت اعترافي... ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ هيا! أنا أعلم ما ينتظرني، ولست خائفاً... لقد قَتَلت، لا بد أن أُقتل! لذا اقطعوا رقبتي، كلما كان ذلك أسرع بات الأمر أفضل...».

ارتبك السيد ميشينيه قليلاً في البداية، لكنه سرعان ما استعاد توازنه، وقال: «لحظة، ماذا بحق الجحيم؟ نحن لا نقطع رقاب الناس بهذه البساطة... أولاً، عليهم أن يثبتوا أنهم مذنبون... ثم، تتضمّن العدالة أخطاء معيّنة، وبعض الظروف المحتملة، إن أردت، ولهذا السبب اخترعت الظروف المخففة».

كانت الغمغمة المبهمة هي الجواب الوحيد لمونيسترول، وتابع السيد ميشينيه: «إذاً كنت غاضباً جداً من عمّك؟».

- أوه! لا!

- إذاً، لماذا؟

- للحصول على الميراث. كان عملي سيئاً، راجع المعلومات عني... كنتُ بحاجة إلى المال، عمّي الذي كان ثرياً جداً، رفض أن يعطيني أي شيء...

- أفهم أنك كنت تأمل في الهروب من العدالة...

- كنت آمل ذلك.

حتى ذلك الحين، بقيتُ متفاجئاً بالطريقة التي أجرى بها السيد ميشينيه هذا الاستجواب السريع، لكن الآن أصبحت أفهم ذلك... خمّنت ما سيحدث بعد ذلك، ورأيت الفخ الذي سينصبه للمتهم.

استأنف السيد ميشينيه فجأة: «شيءٌ آخر؛ من أين اشتريت المسدس الذي استخدمته في جريمة القتل؟».

لم يظهر أيّ تعجّب على وجه مونيسترول، فأجاب: «كان في حوزتي منذ فترةٍ طويلة».

سأل السيد ميشينيه: «ماذا فعلت به بعد الجريمة؟».

أجاب مونستيرول: «رميته في الشارع الخارجي».

أعلن السيد ميشينيه بجدية: «حسناً، سنجري بحثاً وسنعثر عليه بالتأكيد». وبعد لحظة صمتٍ أضاف: «ما لا أستطيع تفسيره هو أنك جعلت كلبك يتبعك...».

ردَّ مونستيرول باستغراب: «ماذا؟! كيف؟! كلبي!».

أجاب السيد ميشينيه: «نعم بلوتون... تعرّفت عليه البوّابة».

انقبضت قبضتا مونيسترول، وفتح فمه للردّ، ولكن خطرت في باله فكرة مفاجئة، فألقى بنفسه على سريره، وهو يقول بلهجة حازمة وثابتة: «كفى تعذيبي، لن تستخرج مني كلمة أخرى».

بدا من الواضح أن الإصرار سيكون عبثاً. لذلك انصرفنا، وحالما خرجنا إلى الرصيف، أمسكت ذراع السيد ميشينيه، وقلت له: «لقد سمعته، هذا الرجل البائس لا يعرف حتى كيف مات عمّه... فهل ما زال من الممكن الشك في براءته!».

لكنه كان متشككاً رهيباً، هذا الشرطي القديم، فردَّ قائلاً: «من يعلم؟ لقد رأيت ممثلين رائعين في حياتي... ولكن هذا يكفي لهذا اليوم... هذا المساء، سآخذك لتناول الحساء... غداً سيكون يوماً جديداً وسنرى...».

***

كانت الساعة تقارب العاشرة عندما قرع السيد ميشينيه الذي كنت أرافقه دائماً، جرس باب شقته.

قال لي: «أنا لا أحمل مفتاحاً رئيساً أبداً. في مهنتنا المقدسة، لا نعرف أبداً ما الذي يمكن أن يحدث... هناك عددٌ من الأوغاد الذين يكرهونني، وإذا لم أكن حريصاً على نفسي دائماً، فلا بد أن أكون كذلك من أجل زوجتي».

كان تفسير جاري الحذِق غير ضروري؛ لقد فهمت. حتى إنني لاحظت أنه ظهر بطريقة معيّنة، والتي لا بد أن تكون إشارة متفقاً عليها بينه وبين زوجته. فتحت السيدة ميشينيه الطيبة الباب، وبحركة سريعة ورشيقة مثل حركة القطة، قفزت على عنق زوجها وهي تصرخ: «ها أنت هنا أخيراً! لا أعرف لماذا، كنت على وشك القلق...». لكنها توقفت فجأة؛ إذ رأتني. فأظلم وجهها البهيج، ثم تراجعت وتحدثَّت إليّ وإلى زوجها بالقدر نفسه: «ماذا؟ تخرجان من المقهى في هذه الساعة...! هذا ليس منطقياً!».

ارتسمت على شفتي السيد ميشينيه ابتسامة متسامحة لرجلٍ متأكد أنه محبوب، ويعلم كيف يهدئ الشجار معه بكلمةٍ واحدةٍ، فأجاب: «لا تلومينا يا كارولين». وربطني بقضيته بهذا الجمع متابعاً: «لم نخرج من المقهى ولم نضيع وقتنا... لقد جاؤوا لاستدعائي بشأن قضية قتل في باتينيول».

وبنظرة ارتياب، تفحصتنا الشابة بالتناوب، أنا وزوجها، وعندما اقتنعت بأننا لا نخدعها، اكتفت بالقول: «آه...!».

لكن الأمر سيستغرق صفحة لتفصيل كل ما يحتويه هذا التعجب القصير. فالرسالة موجّهة إلى السيد ميشينيه وتعني بوضوح ما يأتي: «ماذا؟! وثقتَ بهذا الشاب، وكشفتَ له وضعك، وعرّفته على أسرارنا!». هذه هي الطريقة التي فسّرتُ بها هذه "آه!" المعبّرة، وقد فسّرها جاري الكريم كما فعلت، فأجاب: «حسناً! نعم، أين الضرر؟ إذا كان عليّ أن أخشى انتقام البائسين الذين سلمتهم إلى العدالة، فما الذي يجب أن أخافه من

الشرفاء؟ هل تتخيّلين، بأيِّ حال من الأحوال، أنني أختبئ، أو أنني أشعر بالخجل من مهنتي؟».

اعترضت الشابة قائلة: «فهمتني بشكلٍ خاطئ يا عزيزي...». ولم يسمع السيد ميشينيه حتى هذا. لقد حلّق - علمت بهذه التفاصيل لاحقاً - بعيداً في حالٍ يجعله يفوز دائماً. واستمر في كلامه: «يا للشيطان! لديك أفكار غريبة يا زوجتي. ماذا؟ أنا أحد حراس الحضارة الضائعين، على حساب راحتي وحياتي، أضمن أمن المجتمع وأخجل من ذلك! سيكون الأمر مضحكاً للغاية. ستخبرينني أن هناك كثيراً من الأحكام المسبقة السخيفة ضدنا في الشرطة، والتي تمَّ توارثها من الماضي... ما يهمني؟ نعم، أعلم أن هناك سادة حساسين ينظرون إلينا بازدراء... لكن اللعنة! أودُّ أن أرى وجوههم إذا قررنا أنا وزملائي الدخول في إضرابٍ غداً تاركين الطريق مفتوحاً أمام جيش من المجرمين نقف في وجههم الآن!».

لا شك أن السيدة ميشينيه معتادة على مثل هذه الانفعالات، إذ لم تنطق بكلمة واحدة، وقد فعلت ذلك بشكلٍ جيدٍ، لأن جاري الشجاع لم يواجه أي اعتراض، وهدأ كما لو كان ذلك بفعل السحر. إذ قال لزوجته: «لكن هذا يكفي. الآن الأمر يتعلق بشيءٍ أكثر أهمية بكثير... لم نتناول العشاء، ونحن نموت من الجوع، هل لديك أي شيء تقدمينه لنا على العشاء؟».

ما حدث هذا المساء لا بد أنه حدث بشكلٍ متكرر حتى تتمكّن السيدة ميشينيه من تجاوزه من دون انزعاج. وأجابت بابتسامة ودودة: «سيُقدَّم الطعام للسيدَين خلال خمس دقائق».

خلال لحظات، جلسنا على الطاولة أمام قطعة شهية من لحم البقر البارد، قدّمتها السيدة ميشينيه التي لم تتوقّف أبداً عن ملء كؤوسنا بنبيذ ماكون اللذيذ.

في حين كان جاري المحترم يستخدم شوكته بضميرٍ حيّ، رحتُ أتأمل هذا الركن الهادئ الذي يخصّه، وزوجته الصغيرة الجميلة هذه التي تراعي مشاعر الآخرين، تساءلت عما إذا كان هو بالفعل أحد عملاء الأمن "الشرسين"؛ هؤلاء الذين كانوا أبطالاً لكثيرٍ من القصص السخيفة.

لكن لم يمضِ وقت طويل حتى توقّف الجوع الشديد، وبدأ السيد ميشينيه يخبر زوجته عن رحلتنا. كان يروي القصص بجدية، ويدخل في أدقِّ التفاصيل. جلسَت بجواره، ومن طريقة إصغائها، وهيئتها الجادة، وطلبها توضيحات عندما لم تكن تفهم جيداً، يمكننا تخيّل الملهمة الراشدة التي اعتادت على استشارتها والإدلاء برأيها المؤثّر في الأمور. وبمجرد انتهاء السيد ميشينيه من الحديث قالت:

- لقد ارتكبت خطأً فادحاً؛ خطأ لا يمكن إصلاحه.

- أيّ خطأ؟

- لم يكن عليك أن تذهب إلى مقرِّ الشرطة عند مغادرة باتينيول.

- ومع ذلك، مونيسترول...

- نعم، كنت ترغب في استجوابه... ما النفع الذي حققته من ذلك؟

- أفادني ذلك، يا عزيزتي!

- بلا شيء. كان عليك أن تهرع إلى شارع فيفيان، إلى منزل المرأة... لكنت فاجأتها وهي تعاني من الانفعال الذي لابد أنها شعرت به بسبب اعتقال زوجها، وإذا كانت شريكة في الجريمة، كما نفترض، فبقليل من المهارة كنت جَعلْتها تعترف..

قفزتُ من مقعدي عند سماع هذه الكلمات، وصرخت: «ماذا؟! يا سيدتي، هل تعتقدين أن مونيسترول مذنب...؟!».

بعد لحظة من التردد، أجابت: «نعم!». ثم تابعت بحماسٍ قائلة: «ولكنني متأكدة، اسمعا جيداً، أنا على يقين تام أن فكرة القتل نشأت من المرأة. فمن بين عشرين جريمة ارتكبها رجال، خمس عشرة منها كانت مخطَّطة ومستلهمة من قِبَل النساء... اسأل ميشينيه. كان ينبغي لإفادة البوّابة أن تنيركما. من هي هذه السيدة مونيسترول؟ قيل لكما إنها شخصٌ جميلٌ بشكلٍ لافتٍ، مغريةٌ، طموحةٌ، انتهازيةٌ حتى النخاع، وتسيّطر على زوجها. ولكن ما هو وضعها؟ ضيقٌ ومحدودٌ وغيرُ مستقر. لقد عانت من ذلك، والدليل أنها طلبت من عمّه أن يقرضها مئة ألف فرنك. لكنه رفض الأمر، مما حطم آمالها. هل تصدقان أنها لم تكن غاضبة منه بشدة؟ هيا لا بد أنها كرّرت في ذهنها هذه الأفكار كثيراً: "لو مات هذا العجوز البخيل، لكنا غنيَّين أنا وزوجي!". وعندما رأته سليماً وصلباً كشجرة البلوط، قالت في نفسها لا محالة: "سيعيش مئة عام.. عندما يترك لنا ميراثه، لن يكون لنا أسنان

للعضّ.. ومن يعلم، ربما يدفننا!" هل هناك بعد ذلك مسافة بعيدة لتصوُّر فكرة الجريمة؟ وبمجرد أن اتخذت القرار في عقلها، ربما أعدّت زوجها للجريمة مسبقاً، وجعلته يعتاد على فكرة القتل، وكما يقال، ووضعت السكين في يده... وفي يوم من الأيام، وجد نفسه مهدّداً بالإفلاس، مذعوراً من نحيب زوجته المتكرر، فاقترف الجريمة...».

وافق السيد ميشينيه قائلاً: «كل هذا منطقيٌّ، كلامٌ منطقيٌّ جداً بلا شك، لكن ماذا عن الظروف التي ذكرناها؟».

وعقَّبتُ قائلاً: «إذاً، يا سيدتي، هل تفترضين أن مونيسترول غبيٌّ بما فيه الكفاية ليبلّغ عن نفسه بكتابة اسمه؟!».

رفعت كتفيها قليلاً وأجابت: «هل هذا غباء؟ أنا أؤكد أنه ليس كذلك؛ لأنه الحجة الأقوى لصالح براءته». كان المنطق خادعاً للغاية لدرجة أنني أُذْهِلت للحظة. ثم بعد أن استعدت ذهني، أصررت: «لكنه اعترف بأنه مذنب يا سيدتي!».

- هذه طريقة ممتازة لإقناع العدالة بإثبات براءته...

- أوه!

- أنت الدليل على ذلك، عزيزي السيد غودويل.

- إيه! سيدتي، البائس لا يعرف كيف قُتل عمّه...!

- عفواً، بدا عليه أنه لا يعرف... وهذا ليس الشيء نفسه.

اشتدّ الجدل، وكان من الممكن أن يستمر لفترةٍ طويلة لو لم يضع السيد ميشينيه حدّاً له. إذ قال لزوجته ببساطة: «هيا! هيا! أنتِ مفعمة بالخيال هذا المساء...». ثم تابع كلامه

متوجّهاً إليّ: «أما بالنسبة إليكَ، سأقلّك غداً، وسنذهب معاً إلى السيدة مونيسترول... وبناء على هذا، وبما أني مرهقٌ جداً، فتصبح على خير...».

ربما نام هو، لكنني لم أستطع أن أغمض عينيّ. ارتفع صوتٌ سرّيٌّ من أعماقي، وهو يصرخ في وجهي بأنَّ مونيسترول بريء. تخيلتُ بوضوحٍ مؤلمٍ عذابات هذا الرجل البائس، وحيداً في زنزانته في مركز الاحتجاز، ولكن لماذا اعترف؟!».

***

ما كنت أفتقر إليه في ذلك الوقت - وقد أتيحت لي الفرصة لتحقيق ذلك مئات المرات منذ ذلك الحين - هو الخبرة وممارسة المهنة؛ لقد كان المفهوم الدقيق لوسائل عمل الشرطة وتحقيقها، والتحقيق هو الأهم.

شعرتُ على نحوٍ غامض أن هذا التحقيق أُجري بشكلٍ سيئ، أو بالأحرى بشكلٍ غير جاد، لكنني كنت سأشعر بالحرج الشديد عندما أقول السبب، وخاصة عندما أقول ما ينبغي فعله.

وعلى الرغم من ذلك، كنت أهتم بشغفٍ بالغٍ بمونيسترول، وبدا لي أن قضيته هي قضيتي نفسها. وكان الأمر طبيعياً جداً؛ إذ أصبح غروري الشاب على المَحكِّ، ألستُ أنا مَن أثار أولَ الشكوك حول ذنب هذا البائس؟ قلت لنفسي: «لا بد لي من إثبات براءته!».

للأسف، تأثرت إلى حدٍّ كبيرٍ بمناقشات المساء بحيث لم أعد أعرف ما هي الحقيقة الدقيقة التي أبني عليها نظامي. وكما يحدث دائماً عندما يستخدم المرء عقله لفترةٍ طويلة في حلِّ مشكلة ما، أصبحت أفكاري مشوّشة كخصلة شعر متشابكة في يد طفلٍ. لم أعد أرى بوضوح؛ بعدما سادت الفوضى.

كنت غارقاً في كرسيِّ، وأُتعب ذهني، عندما جاء السيد ميشينيه ليصطحبني في الساعة التاسعة صباحاً، مخلصاً لوعده الذي قطعه في الليلة السابقة. قال بصوتٍ مرتفعٍ وهو يهزُّني بقوة لأنني لم أسمعه يدخل: «هيا...! هيا لنغادر!».

قلت وأنا أقف: «أنا لك!».

نزلنا على عَجَل، ولاحظتُ أنَّ جاري المحترم مرتديٌ ملابس أكثر عناية من المعتاد. لقد نجح في منح نفسه مظهراً لطيفاً وأنيقاً يجذب بشدة أصحاب المتاجر الباريسية. وكانت بهجته هي فرحة الرجل الواثق من نفسه الذي يسير نحو نصرٍ مؤكَّد.

وسرعان ما وصلنا إلى الشارع، وفي أثناء سيرنا سألني: «حسناً! ما رأيك في زوجتي؟ أُعتَبَرُ شخصاً ذكياً في مقرِّ الشرطة، ومع ذلك لا أتردد في استشارتها - كان موليير يستشير خادمه - وكثيراً ما استفدت من ذلك. لديها نقطة ضعف: بالنسبة إليها، لا توجد جرائم غبية، وخيالها يضفي على الأوغاد جميعهم مؤامرات شيطانية... ولكن نظراً لأنني أعاني من عيبٍ معاكس، وأنا إيجابيّ بشكلٍ مفرط بعض الشيء، يمكن بالتأكيد، فمن النادر ألا تنبثق الحقيقة من مشاوراتنا».

صرخت: «ماذا؟! هل تظن أنكَ فهمت لغز قضية مونيسترول!».

توقّف فجأة، وسحب علبة السّعوط الخاص به، واستنشق ثلاث أو أربع جرعات، ثم أجاب بلهجةٍ تتسم بتكتمٍ متكبر: «على الأقل لدي الوسائل اللازمة لفهمه».

في ذلك الوقت، وصلنا إلى أعلى شارع فيفيان، وليس بعيداً عن متجر مونيسترول.

قال لي السيد ميشينيه: «حذار! اتبعني ومهما حدث، لا تستغرب من أي شيء».

لقد أحسنَ بتحذيري؛ وإلا كنت سأفاجأ بشكلٍ غريبٍ لرؤيته يدخل فجأة إلى متجر المظلاّت. بدا صارماً وجاداً كالإنكليز، طلب أن يُعرض عليه كل ما يوجد في المتجر، ولم يجد شيئاً يعجبه، وانتهى به الأمر بالسؤال عما إذا كان من الممكن أن تُصنع له مظلة وفقاً لنموذج يقدمه هو. فأجابوه إن ذلك سيكون أمراً بسيطاً للغاية، وغادر معلناً أنه سيعود في اليوم التالي.

وبالتأكيد، لم تذهب نصف الساعة التي قضاها في هذا المتجر سدى. ففي أثناء فحص الأشياء المقدَّمة إليه، كان لديه فنٌّ أن يستخرج من التجار كل ما يعرفونه عن الزوجين مونيسترول.

فنٌّ سهلٌ! في الواقع، أثارت قضية "عجوز الباتينيول" واعتقال صائغ الحليّ المزيفة استياءً عميقاً في الحيِّ وشكّلا موضوع الأحاديث كلها.

بعد أن أصبحنا في الخارج، قال لي السيد ميشينيه: «هذه هي الطريقة التي نحصل بها على المعلومات الدقيقة. بمجرد أن يعرف الناس مع من يتعاملون، يتخذون وضعية معيّنة ويصوغون الجمل بطريقةٍ معيّنة، ثم وداعاً للحقيقة الحقّة».

كرّر السيد ميشينيه هذه المسرحية في سبعة أو ثمانية متاجر في المنطقة. وحتى في واحد من تلك المتاجر التي كان أصحابه فطّين وقليلي الكلام، اشترى بضاعة بقيمة عشرين فرنكاً. ولكن بعد ساعتين من هذا التمرين الفريد الذي أمتعني كثيراً، أصبح لدينا فهمٌ دقيقٌ للرأي العام. عرفنا بالضبط ما يفكر فيه الناس بشأن السيد والسيدة مونيسترول في الحي الذي عاشا فيه منذ زواجهما؛ أي منذ أربع سنوات.

بالنسبة إلى الزوج، لم يكن هناك سوى صوت واحد؛ إذ قيل إنه كان ألطف الرجال وأفضلهم، متعاوناً، صادقاً، ذكياً ومجتهداً. إذا لم ينجح في تجارته، فذلك لأن الحظ لا يخدم دائماً أولئك الذين يستحقونه أكثر. لقد ارتكب خطأً عندما اختار متجراً محكوماً عليه بالفشل، حيث تعرّض أربع تجّار للإفلاس على مدى الخمسة عشر عاماً الماضية.

كان يعشق زوجته، والجميع يعرف ذلك ويردّده، ولكن هذا الحب الكبير لم يتجاوز الحدود المعتادة؛ ولم يتعرّض لأيّ سخرية بسبب ذلك.. لا أحد يستطيع أن يصدّق تورُّطه في الجريمة. كان الناس يرددون: «لا بد وأن اعتقاله خطأٌ من جانب الشرطة».

أما بالنسبة إلى السيدة مونيسترول، فقد انقسمت الآراء؛ وجدها بعضهم أنيقة للغاية بالنسبة إلى حالتها الثرية، بينما أكد بعضهم الآخر أن الملابس العصرية كانت أحد التزامات التجارة الفاخرة التي تديرها وضروراتها. بشكلٍ عام، اعتقد الجميع أنها تحب زوجها كثيراً. فعلى سبيل المثال، لم يكن هناك سوى صوت واحد يمجّد حكمتها، وهي حكمة جديرة بالثناء نظراً لجمالها اللافت ولكونها محاطة بعدد من المعجبين. ولكنها لم تسبب أيّ ضجة بالحديث عنها قط، ولم تُمس سمعتها الطاهرة بأدنى الشكوك.

هذا ما رأيته جليّاً، وهذا ما أربك السيد ميشينيه بشكلٍ غريبٍ، والذي قال لي: «إنه أمرٌ لا يُصدَّق، لا نميمة، ولا شائعة، ولا قذف! آه! ليس هذا ما افترضته كارولين... وفقاً لها، كان يجب أن نجد إحدى تلك البائعات اللواتي يدرن تجارتهن من خلف طاولة العدّاد، ويعرضن جمالهن أكثر من سلعهن، واللواتي يطردن أزواجهن إلى الغرفة الخلفية من المتجر - كما لو أنهم عميانٌ معتوهون أو تافهون راضون عن أنفسهم... ولكن الواقع مغاير تماماً!». لم أجب، إذ لم أكن أقل ارتباكاً من جاري.

كنا الآن بعيدين عن إفادة بوّابة شارع ليكلوز، فصحيح أن وجهة النظر تختلف باختلاف الحي. ما يُعتبر غنجاً لعيناً في باتينيول ليس أكثر من مجرد ضرورة للوضع في شارع فيفيان.

لكننا استغرقنا وقتاً كافياً بالفعل في تحقيقنا بحيث لم نتمكّن من التوقّف عند تبادل انطباعاتنا ومناقشة تخميناتنا.

قال السيد ميشينيه: «الآن، قبل أن ندخل المكان، لندرس محيطه». وبفضل خبرته في هذه التحقيقات السرّية وسط حركة باريس، أشار لي بأن أتبعه تحت بوابة للعربات، تحديداً مقابل متجر مونيسترول.

كان متجراً متواضعاً، فقيراً تقريباً، إذا ما قورن بالمتاجر من حوله. وبدا جليًّاً أن واجهته تحتاج إلى فرشاة الدهانين. يعلوها، بأحرفٍ متسخة ومسودة – كانت ذهبية فيما مضى، اسم مونيسترول. وعلى المرايا يمكن قراءة: "ذهب وتقليد".

للأسف! كان التقليد هو الشيء الذي يلمع في واجهة المتجر بشكلٍ أساسي. وعلى طول القضبان عُلِّقت عدد من السلاسل المزدوجة، والجواهر النفَّاثة، والتيجان المرصَّعة بحصى الراين، ثم القلائد المصنوعة من المرجان، والبروشات، والخواتم، وأزرار الأكمام المزيَّنة بأحجارٍ زائفة من جميع الألوان... عرضٌ فقيرٌ باختصار، تعرّفت عليه في لمحة سريعة، ولم يكن يغري اللصوص بالسرقة.

قلت للسيد ميشينيه: «لندخل!».

كان نفاد صبره أقلَّ مني، أو ربما يعرف كيف يحتوي نفاد صبره بشكلٍ أفضل مني، لأنه أمسكني من ذراعي وقال: «لحظة... أودُّ على الأقل إلقاء نظرة على السيدة مونيسترول».

لكن كان عبثاً إن بقينا وقتاً طويلاً، لأكثر من عشرين دقيقة أخرى، متمركزين في موقع مراقبتنا الخاص؛ إذ بقي المحل خالياً، ولم تظهر السيدة مونيسترول...

صاح جاري المحترم أخيراً: «بالتأكيد، يكفي الوقوف ساكناً، هيا يا سيد غودويل، لنجازف...».

***

لكي نصل إلى متجر مونيسترول، وجبَ علينا فقط عبور الشارع... وقد تمَّ ذلك في أربع خطوات.

عند سماع صوت الباب يُفتح، خرجت خادمة صغيرة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، متسخة وشعرها غير مرتب، من الجزء الخلفي للمتجر. وسألت: «ماذا يمكنني فعله لخدمة السيدين؟».

سأل السيد ميشينيه: «هل السيدة مونيسترول موجودة؟».

ردّت الخادمة: «إنها هنا أيها السيدان، سأخبرها، لأنه كما تريان...». لم يمنحها السيد ميشينيه وقتاً كافياً لإكمال جملتها.

دفعها بعيداً عن الطريق بحركةٍ قويةٍ إلى حدٍّ ما، أعترف بأنها كانت قاسية، ودخل الجزء الخلفي من المتجر قائلاً: «لا بأس، بما أنها هنا سأتحدّث إليها».

سِرتُ خلف جاري الفاضل، مقتنعاً بأنّنا لن نغادر من دون معرفة إجابة اللغز.

بدَت الغرفة الخلفية مكاناً حزيناً، إذ إنها تُستخدم في آنٍ واحدٍ كغرفة للمعيشة وغرفة للطعام وغرفة للنوم. سادت الفوضى هناك، بل وأكثر من ذلك، هذا التناقض الذي نلاحظه بين الفقراء الذين يسعون جاهدين للظهور كأغنياء.

في الخلف، استقر هناك سرير ذو ستائر دمشقية زرقاء، ووسائده مزينة بالدانتيل، وأمام المدفأة تنتصب طاولة مليئة ببقايا وجبة غداء متواضعة للغاية. في كرسي كبير بذراعين جلست امرأة شابة شقراء، أو بالأحرى هي مستلقية هناك، تمسك في يدها ورقة مختومة... إنها السيدة مونيسترول...

وبالتأكيد، عندما حدّثونا عن جمالها، بقي الجيران جميعهم بعيدين جداً من الواقع؛ إذ انبهرت بها. لكن كان هناك ظرفٌ واحدٌ لم يعجبني: كانت في حالة حداد عميق، ترتدي فستاناً قصيراً من الكريب يكشف عن صدرها ويناسبها بشكلٍ رائع... كان هذا حضوراً

روحياً كبيراً جداً لمثل هذا الألم الكبير. بدا لي أني أرى في هذا حيلة ممثلة ترتدي مسبقاً زيَّ الدور الذي يجب أن تلعبه.

عندما دخلنا، انتفضت وقامت بحركة ظبية مفزوعة، وسألت بصوتٍ بدا ممزقاً بالدموع: «ماذا تريدان أيها السيدان؟».

كل ما لاحظته، لاحظه السيد ميشينيه مثلي، والذي أجاب بصوتٍ قاسٍ: «سيدتي، أنا مُرسل من قِبل العدالة، أنا عميل في جهاز الأمن!».

عند هذا التصريح، سقطَت مرةً أخرى على كرسيّها مع تأوّهٍ كان من شأنه أن يخفف من حدّة التنمُّر... ثم فجأة، اجتاحها نوعٌ من الحماسة، ولمعت عيناها وارتجفت شفتاها وصاحت: «هل جئتما لإلقاء القبض عليّ؟ فلتتباركا... ها أنا جاهزة، خذاني! لذا، سأنضم إلى هذا الرجل الشريف الذي اعتُقل الليلة الماضية. مهما كان مصيره، أريد أن أشاركه إياه... إنه بريء تماماً مثلما أنا بريئة... لا يهم! إذا كان ضحية لخطأ في العدالة البشرية، فسيكون الموت معه هو آخر فرحة لي...».

قاطعها هديرٌ مخنوقٌ قادمٌ من أحد أركان الغرفة الخلفية. نظرتُ ورأيت كلباً أسود، أشعث الشعر، عيناه محتقنتان بالدم، يشهر أنيابه علينا، مستعداً للانقضاض علينا.

فقالت السيدة مونيسترول: «اصمت يا بلوتون! هيا! اذهب للنوم، هذان السيدان لا يضمران لي أيّ ضرر». ببطء، ومن دون أن يتوقّف عن التحديق فينا بغضبٍ، لجأ الكلب إلى تحت السرير.

تابع السيد ميشينيه قائلاً: «أنت على حق في القول إنّنا لا نضمر أيّ ضرر لك يا سيدتي، لم نأتِ لاعتقالك».

إذا كانت تسمع، فلم يظهر ذلك بشكلٍ جليٍّ. إذ تابعت قائلة: «تلقيت هذا الصباح هذه الورقة التي في حوزتي، والتي تأمرني بالتوجُّه بعد ظهر اليوم، الساعة الثالثة، إلى قصر العدل، إلى مكتب قاضي التحقيق... ماذا يريدون مني؟ يا إلهي! ماذا يريدون مني؟».

قال السيد ميشينيه: «يرغبون في الحصول على توضيحات ستثبت، أتمنى ذلك، براءة زوجك... لذا يا سيدتي، لا تعتبريني عدواً... ما أريده هو تسليط الضوء على الحقيقة».

ثم رفع علبة السّعوط الخاصة به، وأدخل أصابعه فيها على عجل، وتابع بلهجةٍ جديَّة لم أعهدها منه من قبل: «هذا يخبرك، سيدتي، ما مدى أهمية إجاباتك على الأسئلة التي سأتشرّف بطرحها عليك... هل ترغبين في الإجابة بصراحة؟».

ثبّتَت عينيها الزرقاوين الكبيرتين الغارقتين في الدموع، على جاري الموقر لفترةٍ طويلة، وقالت بلهجةٍ تعكس استسلاماً مؤلماً: «اسألني يا سيدي!».

للمرة الثالثة، أكرر، كنتُ عديم الخبرة على الإطلاق. ومع ذلك، فقد عانيت من الطريقة التي بدأ بها السيد ميشينيه هذا الاستجواب. بدا لي أنه كشف عن حيرته، وبدلاً من السعي وراء هدفٍ محددٍ مسبقاً، وجّه ضرباته عشوائياً. كنت أفكر: «آه لو سُمح لي أن أقوم بذلك...! آه لو كنت أجرؤ...!».

جلس، غامضاً، مقابل السيدة مونيسترول. ثم بدأ كلامه قائلاً: «يجب أن تعلمي يا سيدتي أنه في مساء قبل أمس، حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، قُتلَ السيد بيغورو، المعروف بأنتينور، عمُّ زوجك...».

قاطعته السيدة مونيسترول قائلة: «آه، يا للأسف!».

سأل السيد ميشينيه: «أين كان السيد مونيسترول في ذلك الوقت؟».

ردَّت قائلة: «يا إلهي! إنها مصيبة».

لم يرف جفنٌ للسيد ميشينيه، وتابع باصرارٍ: «أنا أسألك يا سيدتي، أين قضى زوجك مساء أول أمس؟».

استغرق الأمر من الشابة بعض الوقت للردِّ، بسبب بكائها الذي بدا وكأنه يخنقها. وأخيراً، سيطرت على نفسها وهمست: «مساء أول أمس، قضى زوجي المساء بعيداً عن المنزل».

سأل السيد ميشينيه: «هل تعرفين أين كان؟».

أجابت السيدة مونيسترول: «أوه! بالطبع... كان يجب على أحد عمالنا، الذي يعيش في مونتروج، تسليم مجموعة من اللآلئ المزيّفة إلينا ولم يفعل ذلك... كان هناك احتمال أن نفقد الطلبية، الأمر الذي سيؤدي إلى كارثة، لأنّنا لسنا أغنياء... ولهذا السبب، قال لي زوجي في أثناء تناول العشاء: "سأذهب إلى منزل هذا الرجل". وفي الواقع، حوالي الساعة التاسعة، خرج، حتى إنّني رافقته إلى الحافلة العامة، حيث صعد أمامي في شارع

ريشيليو». ثم تنفَّست بحريّةٍ أكبر... يمكن أن يكون ذلك ذريعة على عدم وجوده في مكان الجريمة، بعد كل شيء.

امتلك السيد ميشينيه الفكرة نفسها، ولكنه تابع بلطفٍ أكثر: «إذا كان الأمر كذلك، فسيؤكد عاملك أنه رأى السيد مونيسترول في منزله في الساعة الحادية عشرة».

- آه! للأسف لا.

- كيف؟ لماذا؟

- لأنه كان بالخارج... ولم يرَه زوجي.

- فعلاً، إنها مصيبة... ولكن من الممكن أن البوّاب قد لاحظ السيد مونيسترول.

- يعيش عاملنا في منزلٍ لا يوجد به بوّاب.

ربما كانت هذه هي الحقيقة... وكان بالتأكيد اتهاماً فظيعاً ضد المتهم البائس.

تابع السيد ميشينيه أسئلته: «في أيّ وقت عاد زوجك إلى المنزل؟».

- بعد منتصف الليل بقليل.

- ألم يبدُ لكِ غيابه طويلاً؟

- أوه! نعم... حتى إنني وبّخته على ذلك... أجابني معتذراً إنه اختار الطريق الأطول، وإنه تجوّل في الطريق، وتوقّف في مقهى لتناول كأس من البيرة.

- كيف كان مظهره عند عودته إلى المنزل؟

- بدا لي مستاءً، لكن ذلك أمرٌ طبيعيٌّ تماماً.

- ما الملابس التي كان يرتديها؟

- تلك التي كان يرتديها عند اعتقاله.

- ألم تلاحظي أي شيء غير عادي فيه؟

- لا شيء.

***

وأنا واقف خلف السيد ميشينيه تقريباً، كان بإمكاني أن أراقب وجه السيدة مونيسترول بسهولة وأشاهد فيه أدق تجليات انطباعاتها. بدَت غارقة في ألمٍ هائلٍ، ودموعٍ غزيرة تنهمر على خديها الشاحبين، ومع ذلك، بدا لي في بعض الأحيان أنني أكتشف وميضاً من الفرح يتلألأ في أعماق عينيها الزرقاوين الكبيرتين. ففكرت: «هل يمكن أن تكون مذنبة بالفعل؟». هذه الفكرة التي طرأت على ذهني حقاً، وبدأت تتجسّد بعنادٍ أكبر في عقلي، فتقدمت بسرعة وسألت بلهجة فظّة: «أما أنتِ يا سيدتي، أين كنتِ خلال تلك الأمسية المشؤومة، في الوقت الذي كان فيه زوجك يركض بلا جدوى إلى مونتروج، بحثاً عن عامله؟».

نظرَت إليّ طويلاً بذهولٍ وأجابت بصوتٍ منخفض: «كنت هنا يا سيدي، سيؤكّد لك الشهود ذلك».

ردّدتُ مندهشاً: «الشهود!».

تابعت قائلة: «نعم يا سيدي... كان الجو حاراً جداً في ذلك المساء لدرجة أنّني أردت أن أتناول الآيس كريم... ولكن تناوله بمفردي يضجرني، لذلك أرسلت خادمتي لدعوة اثنين

من جاراتي: السيدة دورستريش؛ زوجة صانع الأحذية الذي يمتلك متجراً مجاوراً لمتجرنا، والسيدة ريفاي؛ صاحبة متجر القفازات مقابلنا... قبِلَت هاتان السيدتان دعوتي، وظلّتا هنا حتى الحادية عشرة والنصف. اسألاهما، وستخبرانكما... في وسط المحن القاسية التي أمرُّ بها، هذا الظرف العرضي هو نعمة من الله الرحيم».

هل كان ذلك ظرفاً عرضياً حقاً؟ هذا ما تساءلنا عنه بومضة أسرع من البرق، السيد ميشينيه وأنا.

عندما تكون المصادفة ذكية إلى هذا الحد، وعندما تخدم قضية ما على نحوٍ مناسبٍ، فإنه من الصعب جداً ألا نشك في أنها تمَّ الإعداد لها واستدعاؤها إلى حدٍّ ما. ولكن الوقت لم يكن مناسباً لكشف أعماق أفكارنا.

أعلن السيد ميشينيه بجرأة: «لم يُشتبه بكِ أبداً يا سيدتي. أسوأ افتراض يمكن تصوّره هو أن زوجك قد أخبرك بشيءٍ عن الجريمة قبل ارتكابها».

- سيدي! لو كنتَ تعرفا...

- انتظري... قيل لنا إن تجارتكما ليست على ما يرام، وإنكما في وضعٍ محرج.

- لفترة، نعم، في الواقع...

- لا بد أن زوجك كان قلقاً وغير سعيد بشأن هذا الوضع الهشّ... لا بد أنه عانى بشكلٍ خاصٍ من أجلك، أنتِ التي يعشقها، من أجلكِ أنت الشابة الجميلة... من أجلكِ، أكثر من نفسه، لا بد أنه كان يتوق بشدة إلى متع الترف ورضا الذات التي توفرها الثروة.

- سيدي، مرةً أخرى، زوجي بريء...

بنظرةٍ مدروسة، بدا السيد ميشينيه وكأنه يملأ أنفه بالتبغ، ثم قال فجأة: «حسناً! اللعنة! كيف تفسرين اعترافاته؟ إنه أمرٌ نادرٌ أن يعترف البريء بذنبه بمجرد ذِكر الجريمة التي يشتبه بارتكابها، يا سيدتي، إنه أمٌر مدهشٌ!».

ارتفع احمرار عابر على خديّ الشابة. وللمرة الأولى أصبحت نظرتها، التي كانت حتى ذلك الحين صافية وواضحة، مضطربةً ومرتعشةً. وأجابت بصوتٍ خافتٍ، وبدموعٍ متزايدةٍ: «أفترض... أعتقد أن زوجي، مذعوراً ومذهولاً، قد فقدَ عقله عندما رأى نفسه متهماً بجريمة كبرى كهذه».

أومأ السيد ميشينيه برأسه، ثم قال: «في أقصى الحالات، يمكننا أن نعترف بحدوث هذا الهذيان المؤقت... ولكن هذا الصباح، بعد ليلةٍ طويلةٍ من التفكير، أصرَّ السيد مونيسترول على اعترافاته الأولى».

هل كان ذلك صحيحاً؟ هل اتخذ جاري الموّقر هذا الأمر في اعتباره، أم أنه ذهب للاستفسار في السجن قبل أن يأتي ليأخذني؟ بغض النظر عن ذلك، بدَت الشابة على وشك الإغماء، وهي تخفي رأسها بين يديها، تمتمت: «يا الله! لقد جنّ جنون زوجي المسكين».

لم يكن هذا رأيي، بل على العكس تماماً؛ أصبحت مقتنعاً الآن بأنني أشهد مسرحية، وأن يأس هذه الشابة الكبير ليس سوى كذبة. وتساءلت عما إذا كانت لديها أسبابٌ معيّنةٌ لا

أفهمها، تجعلها تعتقد بالجريمة الرهيبة التي اتُّهم بها زوجها، وإذا كانت تعرف الجاني الحقيقي بينما زوجها بريء.

ولكن السيد ميشينيه لم يبدُ كرجلٍ يبحث عن الإجابات لفترةٍ طويلةٍ. بعد أن وجّه إلى الشابة بعض العزاء المبتذل الذي لا يمكن أن يُلزمها بأيّ شيء، توّصَّلَ إلى أنها ستبدد الشكوك إذا قبلَت عن طيب خاطر بتفتيشٍ دقيقٍ لمنزلها.

اغتنمَت هذه الفرصة بحماسةٍ حقيقيةٍ، وقالت لنا: «ابحثا أيها السيدان، افحصا، تحققا وفتشا في كل مكان... هذه خدمة ستقدمانها لي... ولن تستغرقا وقتاً طويلاً... ليس لدينا سوى المتجر، الغرفة الخلفية حيث نحن، وغرفة خادمتنا في الطابق السادس، وقبو صغير... ها هي مفاتيح كل مكان».

لدهشتي الكبيرة، قَبِلَ السيد ميشينيه العرض، وبدا وكأنه ينغمس في التحقيقات الأكثر دقةً وصبراً. إلى أين يريد الوصول؟ ليس بوسعه إلا أن يكون لديه هدفٌ سرّيٌّ، لأن هذا البحث، من الواضح، لن يؤدي إلى شيء. فور انتهائه ظاهرياً قال: «ما يزال هناك القبو لاستكشافه».

قالت السيدة مونيسترول: «سأقودك إلى هناك يا سيدي!». وعلى الفور، تسلَّحَت بشمعة مضاءة، وقادتنا عبر فناء حيث يوجد مخرج ثانٍ للمتجر الخلفي، ثم أكملنا عبر درجٍ زلقٍ للغاية إلى بابٍ فتَحته لنا قائلة: «إنه هنا... ادخلا أيها السيدان».

والآن بدأت أفهم!

بنظرةٍ سريعةٍ ومدروسةٍ، فحص جاري الفاضل القبو. كان مهملاً جداً ومجهزاً بشكلٍ مزري. في إحدى الزوايا انتصب برميل صغير من البيرة، وفي المقابل مباشرة، وُضِعَ برميل نبيذ مثبّت على قطعة خشبية يمكن سحبه منها. وإلى اليمين، على قضبان حديدية، تصطف حوالي خمسون زجاجة ممتلئة.

لم يُشح نظر السيد ميشينيه عن هذه الزجاجات أبداً، ووجد فرصة لتفقدها بعناية واحدة تلو الأخرى. وما رأيته، لاحظه هو أيضاً؛ لم يكن أيٌّ منها مختوماً بالشمع الأخضر. إذاً، السُدادة التي التقطتها، والتي استُخدمت لحماية رأس سلاح القاتل، لم تخرج من قبو عائلة مونيسترول. فقال السيد ميشينيه، مظهراً بعض خيبة الأمل: «بالتأكيد، لم أجد شيئاً... يمكننا العودة إلى الأعلى».

وهذا ما فعلناه، ولكن ليس بالترتيب نفسه الذي نزلنا منه، لأنني مشيتُ أولاً في طريق العودة. لذلك كان على عاتقي أن أفتح باب المتجر الخلفي، وعلى الفور اندفع نحوي كلب الزوجين مونيسترول، وهو ينبح بغضبٍ شديد لدرجة أنّني ألقيت بنفسي إلى الوراء.

قال السيد ميشينيه للشابة: «اللعنة! إن كلبك خطيرٌ!».

بالفعل، بحركةٍ بسيطةٍ من يدها دفعته جانباً. ثم قالت: «لا، بالتأكيد إنه ليس خطيراً! هو فقط جيد في الحراسة... نحن الصائغون أكثر عرضة للسرقة من الآخرين، لذلك قمنا بتدريبه».

بشكلٍ آلي، كما يفعل المرء دائماً عندما يتعرض للتهديد من قِبَل كلب، دعوته باسمه الذي كنت أعرفه: «بلوتون! بلوتون!». ولكنه بدلاً من الاقتراب، تراجع وهو يزمجر ويكشف عن أنيابه الحادة.

قالت السيدة مونيسترول بطيش: «أوه! لا فائدة من مناداته، فهو لن يطيعك».

سألتُ مندهشاً: «حقاً! لماذا؟».

أجابت السيدة مونيسترول: «أوه! إنه وفيٌّ، مثل جميع أفراد عرقه، فهو لا يعرف سوى سيده وأنا».

بدا أنه أمر لا يُذكر، لكن كان لهذه الجمل. تأثير البرق عليّ... ومن دون تفكير، بسرعةٍ أكبر مما أكون عليه اليوم سألت: «سيدتي! أين كان هذا الكلب الوفي مساء الجريمة؟».

كان تأثير هذا السؤال المفاجئ عليها بالغاً حتى إنها كادت تسقط الشمعدان الذي تحمله بيدها. فتلعثمت قائلة: «لا أعرف، لا أتذكّر!».

قلتُ: «ربما تبعَ زوجك».

ردَّت: «في الواقع، نعم، يبدو لي الآن أنني أتذكر».

استنتجت قائلاً: «إذاً، هو مُدرّب على متابعة العربات؛ طالما أخبرتنا أنك قدتِ زوجك إلى الحافلة!».

ظلّت صامتة، وكنت على وشك المواصلة، عندما قاطعني السيد ميشينيه. وبدلاً عن استغلال اضطراب الشابة، بدا وكأنه أخذ على عاتقه مهمة طمأنتها، وبعد أن أوصاها بالامتثال لاستدعاء قاضي التحقيق، اقتادني بعيداً.

ثم عندما أصبحنا بالخارج قال لي: «هل فقدت عقلك؟».

جرحني هذا اللوم، فقلت: «هل إيجاد حلٍ للمشكلة يعتبر فقدان العقل؟ والآن وجدت هذا الحل... سيرشدنا كلب مونيسترول إلى الحقيقة».

ابتسم جاري الموقر من جراء حيويتي، وقال بلهجةٍ أبوية: «أنت على حق، وأنا أفهمك جيداً... ولكن إذا شعرت السيدة مونيسترول بشكوكك قبل هذا المساء، فإن الكلب سيكون ميتاً أو مختفياً».

***

لقد ارتكبتُ خطأً فادحاً، هذا صحيح.. ولكني مع ذلك، وجدت الخلل في الدرع؛ هذا المفصل الذي يمكن من خلاله تفكيك أقوى نظام دفاعي. أنا، المجند المتطوع، رأيت بوضوحٍ أين كان المحقق الخبير يتلمس طريقه في الظلام. ربما شخص آخر سيشعر بالغيرة ويغضب مني، لكن هو لا. كان يفكّر فقط في الاستفادة من اكتشافي الناجح، وكما قال، لن تكون المهمة صعبة الآن بعد أن أصبحت الشكوك تستند على نقطة انطلاق إيجابية. لذا دخلنا مطعماً قريباً للتشاور في أثناء تناول الغداء. وهنا نصل إلى المشكلة التي بدت غير قابلة للحل قبل ساعة.

ثبتَ لنا بوضوحٍ أن مونيسترول بريء. لماذا اعترف بالجريمة؟ ظننا أنّنا نستطيع تخمين السبب، ولكن السؤال لم يكن حاضراً في تلك اللحظة. كنا واثقين أيضاً من أن السيدة مونيسترول لم تغادر منزلها مساء الجريمة... ولكن الأدلة كلها تشير إلى أنها متواطئة معنوياً في الجريمة، وأنها على علم بها، وربما حتى أعطت النصيحة والتحضير لها، وأنها من ناحية أخرى، تعرف القاتل جيداً...

فمن هو هذا القاتل؟

رجلٌ يُطيعه كلب مونيسترول مثل أسياده، حيث تبعه في طريقه إلى باتينيول... لذلك، كان من المألوفين في منزل مونيسترول. على الرغم من ذلك، لا بد أنه كان يكره الزوج؛ لأنه جمع كل شيء ببراعة جهنمية ليوجّه شبهات الجريمة إلى هذا الرجل المسكين. ومن ناحية أخرى، لا بد أن يكون مقرّباً جداً من المرأة، فهي تعرفه ولن تتخلّى عنه، وتضحي بزوجها من أجله من دون تردد...

يا إلهي! الاستنتاج كان واضحاً تماماً؛ لا يمكن أن يكون القاتل سوى منافقٍ خائنٍ، أساء استخدام عاطفة الزوج وثقته للاستيلاء على الزوجة. باختصار، على الرغم من سمعتها كان لدى السيدة مونيسترول عشيق، وهذا العشيق هو الجاني بالضرورة... مع هذا اليقين، بدأت أفكر بقوتي كلها لأتخيّل خطةً ذكيةً من شأنها أن تقودنا إلى هذا المنحط.

فقلت للسيد ميشينيه: «هذه هي الطريقة التي يجب أن نعمل بها، في رأيي... بالعمل... لا بد أن السيدة مونيسترول والقاتل قد اتفقا على أنه بعد ارتكاب الجريمة، سيبقيان

لبعض الوقت من دون رؤية بعضهما؛ إنها الحكمة الأولية... ولكن صدقني، سينتابه الشوق إلى المرأة قريباً، وسترغب في رؤية شريكها مرةً أخرى... لذا ضعْ بالقرب منها مراقباً سيتبعها في كل مكان، وقبل انقضاء اثنين وثمانين ساعة، ستصبح القضية في الجيب».

في محاولةٍ يائسةٍ للحصول على علبة السّعوط الفارغة، بقي السيد ميشينيه للحظة من دون إجابة، وهو يمضغ بين أسنانه بعض الكلمات غير المفهومة. ثم انحنى فجأة نحوي قائلاً: «أنت لم تفهم. لديك عبقرية المهنة، هذا مؤكد، لا أنكر ذلك، لكنك تفتقد الممارسة العملية... وأنا هنا، بحمد الله... ماذا! جملة متعلقة بالجريمة تضعك على الطريق، وأنت لا تتابعها!».

- كيف ذلك؟

- عليك أن تستخدم هذا الكلب الوفي.

- لا أفهم تماماً..

- إذاً تعلّم الانتظار... ستخرج السيدة مونيسترول حوالي الساعة الثانية لتكون في قصر العدل، وستصبح الخادمة الصغيرة وحدها في المتجر... سترى، لا أقول لك سوى ذلك.

وبالفعل، حاولتُ جاهداً أن أحصل على مزيدٍ من المعلومات، لكنه رفض أن يقول أيّ شيء آخر، منتقماً لهزيمته بهذا اللؤم البريء. بغض النظر عن رغبتي، اضطررت أن أتبعه إلى أقرب مقهى، حيث أجبرني على لعب الدومينو. كنت ألعب بشكلٍ سيئ، ومشغولاً بالتفكير، وهو استغلَّ ذلك من دون خجلٍ ليهزمني. عندما دقّت الساعة الثانية قال لي وهو يتخلّى عن نرده: «قمْ! هيا إلى مراكزنا!». ثم دفع الحساب، وخرجنا. وفي اللحظة

التالية كنا مرةً أخرى على أهبة الاستعداد تحت باب المرآب، حيث درسنا محيط متجر مونيسترول.

لم تمض عشر دقائق حتى ظهرت السيدة مونيسترول على عتبة متجرها، مرتدية ثياباً سوداء، مع حجاب كبير من الكريب يغطي وجهها مثل الأرملة.

تذمّر السيد ميشينيه قائلاً: «زيٌّ تعليميٌّ جميل!».

وجّهَت بعض التوصيات إلى خادمتها الصغيرة ولم تتأخر في المغادرة. انتظر رفيقي بصبرٍ خمس دقائق كاملة، وعندما افترض أن الشابة ابتعدت بالفعل، قال لي: «حان الوقت!».

وللمرة الثانية، دخلنا محلَّ الحليّ. كانت الخادمة الصغيرة هناك بمفردها، جالسة خلف العدّاد تمضغ قطعة سكاكر سرقتها من ربّة عملها لإلهاء نفسها. وعندما ظهرنا، تعرّفت علينا، ووقفت محرجة ومرتعشة قليلاً. ولكن من دون أن يمنحها الوقت لفتح فاهها، سألها السيد ميشينيه: «أين السيدة مونيسترول؟».

أجابت الفتاة: «خرجت يا سيدي».

أصرَّ السيد ميشينيه قائلاً: «أنتِ تخدعينني... إنها هناك في الغرفة الخلفية».

ردَّت الفتاة: «أيها السيدان، أقسم لكما بأنها ليست هنا... انظرا إلى الغرفة بدلاً من ذلك».

وبغضبٍ شديدٍ، صفعَ السيد ميشينيه جبينه مستاءً وهو يردّد: «كم هذا مزعج يا إلهي! كم ستشعر هذه السيدة المسكينة مونيسترول بالأسف». ونظرَت الخادمة الصغيرة إليه

بفمٍ فاغرٍ وعينين مستدقتين من الدهشة، وتابع قائلاً: «على كل حال، أنتِ يا بنتي الجميلة، ربما يمكنك استبدال رئيستك في العمل... إذا عُدت، فذلك لأنّني فقدت عنوان السيد الذي طلبَت مني زيارته».

- أي سيد؟

- أنت تعرفينه جيداً يا آنستي... هيا، نسيتُ اسمه الآن!... السيد... بالطبع! أنتِ تعرفينه فقط... هذا السيد الذي يطيعه كلبكِ الشرير.

- أوه! السيد فيكتور...

- هذا صحيح، بالضبط... ماذا يعمل هذا السيد؟

- إنه صائغ مجوهرات... وهو صديقٌ كبيرٌ للسيد... عملا معاً عندما كان السيد صائغ مجوهرات قبل أن يصبح ربَّ عمل، ولهذا السبب يفعل كل ما يريده ببلوتون.

- إذاً، يمكنك أن تخبريني أين يسكن هذا السيد فيكتور.

- بالتأكيد. إنه يسكن في شارع روا دوريه، رقم 23.

بدت الفتاة المسكينة سعيدة للغاية لأنها متمكّنة من هذه المعلومات بشكلٍ جيدٍ. وأما أنا، فعانيت من سماعها تدين ربّة عملها بهذه الطريقة من دون أن تشعر بذلك... أما السيد ميشينيه، فكان أكثر صلابةً وليست لديه هذه الحساسية. وحتى بعد أن حصل على المعلومات التي نريدها، انتهى المشهد بسخريةٍ محزنةٍ... عندما فتحتُ الباب للمغادرة، قال السيد ميشينيه للفتاة الصغيرة: «شكراً لكِ! شكراً لكِ! لقد قدمتِ للتو خدمة جليلة للسيدة مونيسترول، وستكون سعيدة جداً...».

***

بمجرد أن وصلتُ إلى الرصيف، استولت عليّ فكرة واحدة فقط: أن نُحكِمَ خطتنا ونركض إلى شارع روا دوريه لاعتقال السيد فيكتور هذا، الجاني الحقيقي بلا شك.

كلمة من السيد ميشينيه سقطت كالماء البارد على حماستي، إذ قال لي: «والعدالة؟ من دون أمرٍ من قاضي التحقيق، لا يمكنني فعل شيء... يجب أن نركض إلى قصر العدل».

عقبَّت محذراً: «ولكن سنقابل هناك السيدة مونيسترول، وإذا رأتنا، فستحذّر شريكها».

ردَّ السيد ميشينيه بمرارة غير مقنعة: «فليكن ذلك...! سيهرب الجاني وسيُحفظ شكله... فليكن ذلك، وسأكون قادراً على منع هذا الخطر. لنسرع، لنمشِ بسرعةٍ أكبر».

وفعلاً، منحه ذلك أمل النجاح وقوائم الغزلان. حين وصلنا إلى قصر العدل، صعد الدرج شديد الانحدار المؤدي إلى رواق قضاة التحقيق بخفةٍ وثبات، وخاطب رئيس المُحضرين وسأله عما إذا كان القاضي المسؤول عن قضية عجوز باتينيول في مكتبه.

أجاب المُحضر: «إنه هناك، مع شاهدة شابة ترتدي ملابس سوداء».

قال لي رفيقي: «إنها هي بالضبط!». ثم موجّهاً كلامه إلى المُحضر: «أنت تعرفني، بسرعة أعطني شيئاً لأكتب به ملاحظة صغيرة للقاضي وستأخذها إليه».

انصرف المُحضر ومعه الملاحظة، وهو يجرُّ بنطاله على الأرض المغبرة، وسرعان ما عاد ليخبرنا أنَّ القاضي ينتظرنا في المكتب رقم تسعة.

لكي يستقبل السيد ميشينيه، ترك القاضي السيدة مونيسترول في مكتبه تحت رعاية كاتبه، واستعار مكتب أحد زملائه. وسأل بلهجةٍ سمحت لي بقياس الهوة التي تفصل بين قاضٍ ورجل أمنٍ مسكين: «ما الأمر؟».

شرح السيد ميشينيه بإيجاز ووضوح خطواتنا ونتائجها وآمالنا. وغني عن القول إن القاضي يشاركنا قناعاتنا كما يبدو. وكرر بعنادٍ أثار غضبي: «ولكن منذ أن اعترف مونيسترول...!». ولكن بعد كثيرٍ من التوضيحات، قال: «سأوافق على توقيع أمر التوقيف».

وبحوزته هذه الوثيقة الضرورية، انطلق السيد ميشينيه برشاقةٍ شديدةٍ لدرجة أنني كدت أسقط عندما اندفعت خلفه إلى أسفل الدرج... لم يكن من الممكن أن يتبعنا حصان عربة أجرة... لا أعرف ما إذا كنا قد استغرقنا ربع ساعة في الوصول إلى شارع روا دوريه. ولكن بمجرد وصولنا هناك، قال لي السيد ميشينيه: «حذارِ!».

وبجوٍ هادئ دخل إلى الممر الضيق للمنزل الذي يحمل رقم 23.

سأل البوّاب: «السيد فيكتور؟».

أجاب البوّاب: «في الطابق الرابع، الباب الذي على اليمين في الممر».

سأل السيد ميشينيه: «هل هو في البيت؟».

ردّ البوّاب: «نعم».

خطا السيد ميشينيه خطوة نحو الدرج، ثم بدا أنه غيّرَ رأيه، إذ قال للبوّاب: «يجب أن أفرحه بزجاجةٍ جيدة، هذا السيد فيكتور الشجاع... أيّ تاجر نبيذ يذهب إليه هنا؟».

ردَّ البوّاب: « في الجهة المقابلة».

كنا هناك في قفزةٍ واحدةٍ، وبلهجةٍ مألوفةٍ طلبَ السيد ميشينيه: «زجاجة من فضلك، وتكون جيدة... ذات الختم الأخضر».

آه! يا الله! هذه الفكرة لم تخطر على بالي في ذلك الوقت! ومع هذا، كان الأمر بسيطاً جداً. بعد إحضار الزجاجة إلينا، عرضَ رفيقي السُدادة التي وجدناها عند السيد بيغورو، المعروف باسم أنتينور، وكان من السهل علينا التأكد من هوية الشمع.

لقد انضم الآن إلى يقيننا المعنوي يقينٌ ماديٌّ، وبإصبعٍ واثقٍ طرق السيد ميشينيه باب فيكتور.

صاح صوتٌ عالٍ لنا: «تفضلوا!».

كان المفتاح في قفل الباب، فدخلنا مباشرة، وفي غرفة نظيفة جداً، رأيت رجلاً في الثلاثينيات من العمر، نحيلاً، شاحباً وأشقر، يعمل أمام طاولة.

لم يبدُ أن وجودنا يزعجه. فسأل بلطف: «ماذا تريدان؟».

اقترب منه السيد ميشينيه وأمسك بذراعه: «باسم القانون، أعتقلك!».

شحب وجه الرجل، لكنه لم ينظر إلينا بخوفٍ، وقال بنبرةٍ مستفزةٍ: «أتسخر مني؟ ماذا فعلت؟».

هزَّ السيد ميشينيه كتفيه، وردَّ عابساً: «لا تتظاهر بالبراءة كالأطفال! لقد تمّت تسوية حسابك... شوهدت وأنت تخرج من منزل السيد أنتينور، ولديّ في جيبي السُدادة الذي استخدمتها لمنع خنجرك من الاهتزاز».

كان الأمر أشبه بلكمةٍ على عنق البائس... انهار على كرسيه وهو يتلعثم: «أنا بريء...!».

قال السيد ميشينيه بهدوء: «ستخبر القاضي بذلك، لكنني أخشى أنه لن يصدقك... إذ اعترفَت شريكتك؛ السيدة مونيسترول، بكلِ شيء».

كما لو كان مدفوعاً بنابضٍ، استقام فيكتور وصرخ: «هذا مستحيل! لم تكن تعرف شيئاً...».

قال السيد ميشينيه: «إذاً، فعلتَ ذلك بمفردك! جيد جداً... ما يزال هناك كثير من الاعترافات». ثم خاطبني كرجلٍ واثقٍ من حقائقه قائلاً: «ابحث في الأدراج يا عزيزي السيد غودويل، فمن المحتمل أن تجد خنجر هذا الشاب الجميل هناك، وبالتأكيد ستجد رسائل الحب وصورة حبيبته». لمعَ وميضٌ من الغضب في عينيّ القاتل وصرّ على أسنانه، لكن البنية القوية للسيد ميشينيه وقبضته الحديدية أخمدت أيّ نيّة للمقاومة في داخله. وبالفعل، عثرتُ في أحد أدراج الخزانة على كل ما أخبرني عنه رفيقي.

وبعد عشرين دقيقة، كان فيكتور "مُحزماً بشكلٍ لائق" - هذا هو التعبير الأدق - في عربة أجرة بيني وبين السيد ميشينيه، متجهين نحو مقرِّ الشرطة.

قلتُ لنفسي مندهشاً من بساطة المشهد: إن إلقاء القبض على قاتل، وهناك رجلٌ محكومٌ عليه بالإعدام، ما هو إلا ذلك...!

تعلمتُ لاحقاً بالطريقة الصعبة أنَّ هناك مجرمين أكثر رعباً. إذ إن هذا الأخير، بمجرد أن رأى نفسه في زنزانة الاحتجاز، شعر بالضياع، واستسلم وأخبرنا بجريمته بالتفصيل. أخبرنا أنه يعرف السيد بيغورو منذ فترةٍ طويلةٍ وكان معروفاً لديه. وكان هدفه من قتله قبل كل شيء هو إلصاق التهمة بمونيسترول ومعاقبته على الجريمة. لهذا السبب ارتدى ملابس مشابهة لتلك التي يرتديها مونيسترول وتبعه بلوتون. وبمجرد قتل العجوز، كانت لديه الشجاعة الرهيبة لغمسِ إصبع الجثة في الدم ورسم هذه الحروف الخمسة: مونيس، التي كادت أن تقضي على رجلٍ بريءٍ.

قال لنا بغطرسةٍ متبجّحةٍ: «كانت الخطة محكمة حقاً، لو نجحت لقتلت عصفورين بحجرٍ واحد: سأتخلص من صديقي مونيسترول الذي أكرهه وأغار منه، وسأُثري المرأة التي أحبها... كان الأمرُ بسيطاً ورهيباً بالفعل».

اعترض السيد ميشينيه قائلاً: «للأسف، يا صغيري، فقدتَ تركيزك في اللحظة الأخيرة...! ماذا تريد؟ الإنسان ليس كاملاً أبداً! إذ إنَّ اليد اليسرى للجثة هي التي غمَّستها في الدم...».

قفزَ فيكتور واستقام صائحاً: «ماذا؟ هذا ما دمرني؟!».

ردَّ السيد ميشينيه: «بالضبط».

بلفتة العبقري المجهول، رفعَ البائس ذراعه نحو السماء، وقال: «فكر في أن تكون فناناً».

وأضاف وهو ينظر إلينا بنظرة شفقة: «كان السيد بيغورو أعسر!».

وهكذا، كان اكتشاف الجاني سريعاً بسبب خطأ في التحقيق. هذا الدرس لم يكن ليضيع مني. ولحسن الحظ، تذكرته في ظروف أكثر درامية بكثير، وسأرويها لاحقاً.

وفي اليوم التالي، أُطلِقَ سراح مونيسترول.

وحيث إن قاضي التحقيق انتقده على اعترافاته الكاذبة التي عرّضت العدالة للوقوع في خطأ فادح، لم يكن بوسعه إلا أن يقدم سوى الآتي: «أنا أحب زوجتي، وأردتُ أن أضحّي بنفسي من أجلها، ظننتها مذنبة!».

هل كانت مذنبة؟ أنا أقسم بذلك.

أُلقي القبض عليها، ولكن تمّت تبرئتها بموجب الحكم الذي حكم بإدانة فيكتور بالأشغال الشاقة مدى الحياة.

يدير السيد والسيدة مونيسترول اليوم متجراً لبيع نبيذٍ غير مشهور في ساحة فينسين. وإرث عمّهما بعيد المنال؛ فهما في فقرٍ مدقعٍ.

مدين حرامي

مترجم سوري

مترجم يحمل ماجستير في اللسانيات التطبيقية – تعليم اللغة الفرنسية للأجانب من جامعة رين الثانية – فرنسا (2005 – 2007)، ودبلوم الدراسات الأدبية (2002 – 2004)، وإجازة في الأدب الفرنسي (1998 – 2002) من جامعة حلب – سوريا.

منذ عام 2009، يشغل منصب مدرّس في ماجستير التأهيل والتخصص FLE بالمعهد العالي للغات في جامعة حلب .كما عمل مترجمًا باللغتين العربية والفرنسية لدى منصة جدل للترجمة – الإمارات (2022 – 2025)، ومترجمًا للأفلام والمسلسلات في تنوير للترجمة – سوريا (2020 – 2022)، تولّي قسم اللغة الفرنسية في دار كينا للترجمة والنشر – الإمارات عام 2025.

صدر له

من الفرنسية إلى العربية

توماس سانكارا (2025) تحرر المرأة والنضال من أجل تحرير أفريقيا (دار كينا: الإمارات).

سيمون فايل (2025) انتظار الله (دار أما بعد: السعودية).

توماس سانكارا (2025) نحن ورثة ثورات العالم (دار كينا: الإمارات).

بينجامين رابييه (2024) قصص فلكلورية فكاهية (دار لازورد: العراق).

غودول (2023) صاحبة المكتبة (دار دريم بوك: الكويت).

جول ليرمينا (2025) أكسير الحياة (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

من العربية إلى الفرنسية

أسامة المسلم (2022) بساتين عربستان (دار أدب بوك: السعودية).

أسامة المسلم (2024) خوف (دار أدب بوك: السعودية).

إصدارات أخرى

لخطواتك رائحة الكينا (2025) ديوان شعري مشترك (دار كينا: الإمارات).

NOVEL

رواية «عجوز عجوز الباتينيول» للكاتب الفرنسي إميل غابوريو، في ترجمتها العربية الأولى، تقدم تجربة سردية تجمع بين الغموض النفسي والسخرية اللاذعة من طبيعة الإنسان والمجتمع. تتميز الرواية بأسلوب غابوريو الدقيق، حيث تُنسج الأحداث الصغيرة والكبيرة لتكشف هشاشة الإنسان أمام الزمن، وتناقض رغباته وطموحاته، بين الماضي الذي لا يرحل والحاضر الذي يفرض نفسه ببطء.

تحكي الرواية قصة العجوز الباتينيول، شخصية رمزية تمثل الصراع الداخلي للإنسان، ورحلته مع الزمن والموت، وعلاقته بالمجتمع المحيط به. تتناول الرواية تناقضات الحياة اليومية، من التمسك بالعادات إلى رفض التغيير، ومن الحلم بالمستقبل إلى الرضا بالقليل المتاح، في تصوير يوازن بين الطرافة والمرارة، وبين الواقعية والخيال.

تُبرز الرواية قدرة غابوريو على تقريب الشخصيات للقارئ، مهما بدت غريبة أو سخيفة، وتطرح تساؤلات حول الخيارات الحياتية واللحظات الصغيرة التي قد تصبح مصيرية.

هذه الترجمة العربية الأولى تمنح القراء فرصة قراءة عمل كلاسيكي فرنسي بلغة عربية سلسة ودقيقة، محافظة على روح النص الأصلي، وتعكس أسلوب غابوريو الفريد في المزج بين النقد الاجتماعي والعمق النفسي، لتصبح **«عجوز عجوز الباتينيول»** تجربة إنسانية متكاملة تتجاوز القصة الفردية لتفكر في الحياة والزمن والمصير.

ÉMILE GABORIAU

LE PETIT VIEUX DES BATIGNOLLES

Translate it from français by Medyan Harami

9 781326 199234

Jidar
Culture & Publishing